هرمن ودروتيـه

للشاعر الكبير

جوته

يوهان ولفجانج فون جوله

ترجمها عن الألمـانية

د.محمد عوض محمد

تقديم

د. طه حسين

الكتاب:هرمن ودروتيه

الكاتب:جوته

ترجمة: د.مُحَمَّد عوض مُحَمَّد

تقديم: د. طه حسين

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة -جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

هرمن ودروتيه/ جوته, ترجمة: مُحَمَّد عوض مُحَمَّد ، تقديم: طه حسين
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٧ ص، ١٨*٢١سم.

الترقيم الدولى:٦ – ٢٢٢ – ٩٩١- ٩٧٧- ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع :٩٤٨٣ / ٢٠٢١

هرمن ودروتيه

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

أتيح لي منذ أكثر من عشر سنين أن أقدم إلى قراء العربية في الشرق جوته حين قدمت إليهم ترجمة صديقي الزيات لـ"آلام فرتر" وأتيح لي بعد ذلك بأعوام أن أتحدث إلى قراء اللغة العربية في الشرق عن جوته مرة أخرى حين قدمت إليهم ترجمة صديقي مُحَمَّد عوض لقصة "فاوست" ويتاح لي اليوم أن أتحدث إلى قراء العربية في الشرق مرة ثالثة عن جوته ،وأنا أقدم إليهم ترجمة صديقي عوض لهذه الآية الخالدة من آيات جوته وهي قصة هرمن ودروتيه وأنا أكتب هذا الفصل وفي نفسي عاطفتان قويتان تبعثان فيها السرور والغبطة وتملآنها بالرضى والإبتهاج: إحداهما عاطفة الأثرة التي يمقتها الناس عادة ويذمها فلاسفة الأخلاق دائمًا والتي لاأتحرج من أن أقبلها الآن وأستعذب الشعور بها لحظات قصارًا لأني إنسان أجد ما يجده الناس من هذه العواطف التي تنشأ عن الضعف،فتملأ النفس غرورًا وتبعث فيها الحاجة إلى الفخر. ومالي لا أستعذب هذا الضعف ولا أستلذ الحاجة إلى الفخر.وليس من الأشياء اليسيرة ولا القليلة الخطر، أن يختصك الله بهذه النعمة. نعمة التعريف بجوته وتقديمه وتقديم شيء من آثاره الخالدة إلى أجيال الشرق العربي على إختلافها.

لقد كنت ومازلت أشعر وأنا أقدم هذا الشاعر الفيلسوف العظيم إلى أهل الشرق إني أستقبله في داري وأقدم إليه من ألوان التضييف والإكرام ما أقدر عليه وما هو أهل لأضعافه. وأي شرف أحسن في النفس وقعًا

وأدعى إلى الفخر والكبرياء من استقبال هذا الرجل العظيم وتقديمه إلى الشرقيين بل تقديم الشرقيين إليه ولاسيما بعد أن مضت الأعوام بشخصيته الفردية والوطنية وجعلته رجلًا إنسانيًا عالميًا فوق الفرد وفوق الأمة الألمانية التي أنجبته وفوق العصر الذي عاش فيه بل فوق العصور جميعًا. ويزيد هذه العاطفة في نفسي قوة وبها استئثارًا أني لم أكد أقدم جوته إلى الشرقيين حتى أحبوه وأقبلوا عليه يقرأونه ويدرسونه ويلتمسون عنده غذاء العقل والعاطفة والشعور؛فلم تكد تظهر آلام فرتر وتذيع في الناس حتى أساغوها واستعذبوها وطلبوا المزيد من آثار هذا الرجل العظيم. فظهرت لهم قصة فاوست فإذا هم يجدون فيها مزاجًا قيمًا بديعًا من الأدب الرائع والفن الرفيع والفلسفة العليا، وإذا هم يقرأون ويدرسون ويستزيدون وإذا صديقي عوض يلبي هذا الدعاء ويستجيب لهذا النداء فيترجم لهم هذه الآية التي أقدمها إلى القراء اليوم وهي قصة هرمن ودروتيه.

هذه إحدى العاطفتين اللتين أشعر بهما وأنا أكتب هذا الفصل. فأما العاطفة الأخرى فقد تحدثت عنها وأنا أتحدث عن العاطفة الأولى. ذلك أني أشعر بشيء من الإيثار وحب الخير للناس جميعًا وأشعر بشيء من الغبطة حين أراهم يظفرون بهذا الخير الممتاز الذي يهديه إليهم الأدباء والعلماء من حين إلى حين فيرفهون عليهم ويريحونهم ساعات أو أيامًا من هذا العناء الطويل الثقيل الجاف الخشن عناء الحياة.

ذلك أني لم أقرأ كتابًا يعجبني ولم أستمتع بأثر من الآثار الأدبية الرائعة إلا إزددت إعجابًا بهذا التشبيه الشائع الذي يصور الحياة كأنها صحراء

عريضة مقفرة. محرقة الشمس غليظة الأرض، مضطربة الريح كثيرة الرمال، ندفع فيها دفعًا لا قبل لنا بمقاومته فتلقى فيها الأهوال والخطوب ولكن الأدب والفن والفلسفة تتيح لنا من حين إلى حين أن نستريح من هذا الجهد المضني حين نلقى في بعض الطريق وسط هذه الصحراء المهلكة واحة نضرة، فيها الشجر والزهر، والروض والماء العذب، والنسيم الحلو العليل.

فهل يستطيع الناس أن يشكروا للشعراء والكتاب والفنيين والفلاسفة مايسدون إليهم من نعمة وما يقدمون إليهم من معروف حين ينشئون لهم هذه الوحات التي يطمئنون فيها ويجددون فيهانشاطهم ويذوقون من نعميها وبهجتها ولذتها مايعينهم على المضي في سفرم الطويل الشاق؟ وهل يستطيع الشرقيون أن يشكروا لهؤلاء الأدباء الذين يترجمون لهم آيات الأدب والفن والفلسفة فيتيحون لهم من النعمة ما أتيح للأمم التي نبغ فيها عظماء الرجال وينسون أنفسهم ويمحون شخصياتهم ويقنعون بمكان المترجم. الذي ليس هو بالقارئ المستريح ولا المنتج النابغة، ولكنه صلة بين الرجلين؛ لاحظ له من راحة الأول ولاحظ له من مجد الثاني وإنما هو خادم مخلص مؤثر أمين يرفع القارئإلى حيث يذوق جمال الفن وجلاله؛ ويشق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقًا جديدةإلى عقول الناس وقلوبهم. ويتيح لهم بسط سلطانهم الخير على مختلف البيئات والأجيال.

هذه منزلة المترجم بين المنتجين والمستهلكين في الفن والأدب والفلسفة كما يقول أصحاب الاقتصاد؛ يراها الناس يسيرة وأراها عظيمة جليلة الخطر وحسبك أنها هي التي تحقق الصلة القوية بين الأجيال

والشعوب فتزيل ما بينهم من الفروق، وتدني بعضهم من بعض، وتقربهم من هذا المثل الأعلى الذي يقوم على رقي العقل والخلق والشعور وحب الخير والإخلاص في طلب السلام. فلنعرف لهم ذلك على أقل تقدير إذا لم نستطع أن تجزيهم بخير منه على مايسدون إلى الأفراد والجماعات من مأثرة وما يهدون إليهم من جميل.

فرغ جوته في أواسط سنة ١٧٩٦ من قصته البديعة "ولهلم مايستر "وأرسل آخر جزء من أجزائها إلى صديقه شيلر، وأعلن إليه في كتاب أرسله مع هذا الجزء أنه يريد أن يستريح من العناء الذي لقيه في وضع هذه القصة بوضع قصة أخرى غرامية أبطالها من أهل المدن. وكان كل شيء حول جوته يدفعه إلى وضع هذه القصة وإلى وضعها على هذا النحو الذي سيراه القراء حين يقرأون هذه الترجمة التي أقدمها إليهم.

كانت الثورة الفرنسية قد غيرت نظام الطبقات التي تتألف منها الجماعة فأزالت الفروق السياسية والإجتماعية وسوت بين الناس في الحقوق والواجبات ورفعت من شأن الطبقات الوسطى من أهل المدن لأن هذه الطبقات كانتراقية مهيأة للنهوض بأعباء الحياة العامة وإحتمال تبعاتها والاستمتاع بما فيها من منفعة وقوة وسلطان.

أزالت الثورة الفرنسية سلطان الأشراف ولكنها لم تنقله إلى الطبقات الدنيا لأن هذه الطبقات لمتكن مهيأة للنهوض بهفاكتفت بنقله إلى الطبقات الوسطى؛ وتركت للاشتراكية التمهيد لسيادة العمال ومن إليهم فكان الشعور في أوربا كلها وفي فرنسا وجاراتها خاصة قويًا لأن عصر

السيادة والعزة للطبقات الوسطى قد أظل الإنسانية فلا غرابة في أن تنبعث الحياة القوية الخصبة في نفوس هذه الطبقات وفي أن تضطر الفلاسفة والأدباء إلى العناية بها والتفكير فيها ولا غرابة في أن يفكر جوته في أن يتخذ منها أبطالًا لقصصه وآثاره المختلفة.

وكان الشاعر الألماني فوس قد وضع قصة شعرية وصف فيها الحب ونشأته بين المحبين وتداني هذين المحبين حتى تكون الخطبة ثم يكون الزواج وما يحيط بهذا كله من لذة وبهجة ومن ألم وحزن ثم من رضوإبتهاج. وكان عنوان هذه القصة لويز وكان الألمانيون قد فتنوا بها حين ظهرتسنة ١٧٨٤. وكان جوته نفسه من أشد الناس حبًا لها وإفتنانًا بها. وأنت تعلم أن من أخص خصال الشاعر وأقواها وأشدها تأثيرًا في حياته الفنية أنه لايكاد يعجب بأثر من الآثار الأدبية حتى يود لو أستطاع أن يحاكيه وينشئ مثله. وكان جوتهكما تعرف مشغوفًا بالأدب اليوناني وبالقصص والتمثيل منه خاصة، وكان شديد الحرص على أن يحاكي هذا الأدب ويحتذيه وينشئ مثله. وكان لايتهيب شعراء التمثيل اليونانيين ولكنه كان يكبر هوميروس ويخافه ولا يكاد يحدث نفسه بالطمع في محاكاته أو مجاراته. ولكن عالمًا ألمانيًا هو وولف كان قد نهض في هذا العصر إلى هذا المعبد الذي كان يقيم فيه صنم هوميروس ففتحه ودخله وزار حجراته وغرفاته ثم خرج فأعلن إلى الناس أنه لم يجد صنمًا واحدًا وإنما وجد أصنامًا. وأن هوميروس ليس كما كان الناس يعتقدون، هذا الشاعر الإلهي العظيم الذي لايجاري ولا يباري، وأما هو في أكبر الظن شاعر نابغة قد جاراه من غير شك كثير من الشعراء فبرعوا كما برع ونبغوا كما نبغ ونسبت آثارهم الخالدة إليه دونهم، فزعم

الناس أنه وحده صاحب الإلياذة والأوديسا على حين أن نصيبه من هاتين الآيتين يسير.

فلم يكد جوته يقرأ ماكتبه وولف حتى أحس الشجاعة على أن يجارى شعراء الإلياذة والأودسياكماجارى شعراء التمثيل. وكتب إلى وولف يذكر له ميله إلى أن يكون أحد هؤلاء الشعراء الهوميريين.

وكانت الأنباء قد استفاضت بفتنة دينية في مدينة سلزبورجأنتهت بطرد البروتستنتيين منها، فهاجر هؤلاء في حالة سيئة، ومروا في هجرتهم هذه بإحدى المدن لخرج الناس ينظرون إليهم، وكان بين هؤلاء الناس شاب رأى بين المهاجرين فتاة راقته فأحبها ولكنه لم يعلن إليها الحب، وإنما طلب إليها أن تتبعه على أن تكون خادمًا لأسرته فقبلت. فلما انتهت معه إلى البيت أعلنت الخطبة وقبلتها الفتاة، وقدمت إلى الفتى شيئًا من النقد كانت تحمله أهدته إليه مهرًا لها.

فلما انتهت هذه القصة إلى جوته في هذه الظروف التي كانت تحيط به والتي أجملتها لك آنفًا كان كل شيء قد تم، ليستطيع شاعرنا العظيم أن يضع هذه القصة الشعرية التي يستريح بها من العناء الذي لقيه في تأليف قصة ولهلم ميستر.

ليس ما يمنعه من محاكاة هوميروس قد حاكاه الشعراء من قبله وليس ما يمنعه من أن يجاري فوست ويضع قصة كقصة لويز، وليس ما يمنعه من أن يلائم بين هذين الميلين فيحاكي في قصة واحدة الشاعر اليوناني القديم والشاعر الألماني الحديث.

أما محاكاة الشاعر الألماني فيسيرة سهلة لامشقة فيها ولا عناء وليس من شك في أن الفوز فيها محقق لعبقرية جوته. ولكن الخطر كل الخطر والعسركل العسر في محكاة هوميروس وللشعر الحماسي لاكما نجده في الإلياذة والأوديسا شروط وأصول منها ما يتصل بموضوعه ومنها ما يتصل بشكله وصورته، وليس من اليسير على جوته أن يرعى هذه الأصول ويحقق هذه الشروط ولئن فعل فلن يكون من اليسير أن يذوقه الناس ويعجبوا به. فالشعر الحماسي لم يقبل إلى أيام جوته أن يكون له موضوع غير الحوادث الخارقة العالية التي تتصل بالأبطال والآلهة وكل محاولة للنزول بهذا الشعر عن هذه المنزلة قد لقيت الإخفاق. والشعر الحماسي في حاجة إلى وزن خاص هو هنا الوزن السداسي الذي لم يألفه الألمان ولم تستقم له اللغة الألمانية. والشعر الحماسي يحتاج في ألفاظه وأساليبه إلى شيء عظيم من الفخامة والضخامة والجلال الذي يبهر العقل والخيال ويملأ السمع والقلب معًا. فكيف السبيل إلى تحقيق هذا كله وكيف السبيل بعد تحقيقه إلى حمل الناس على قبوله وإساغته.

هذه هي المعضلة التي فرضت نفسها على جوته حين فكر في إنشاء قصته الغرامية. ولكن جوته ليس رجلًا مثلك ومثلي وإنما هو رجل نابغة فذ، تستطيع المعضلات أن تفرض نفسها عليه ويستطيع هو أن يجد لها الحل وأن يفرضه عليها. وكذلك فعل ويحدثنا شيلر في بعض كتبه إلى صديق له أنه هو وإمرأته لم يكونا يدريان بأي الأمرين يعجبان من جوته حين يضع هذه القصة فيطلعهما على خمسين ومئة بيت في اليوم أيعجبان بهذا الشعر أم يعجبان بسهولة تأتيه للشاعر وسرعة الشاعر في إنشائه.

ويقارن شيلر في شيء من الإعجاب والحزن بين نفسه وبين جوته فبينما هو يجهد نفسه ويكلفها ألوان العناء ليخرج للناس أدبًا لايكاد ضاه إذاجوته يهز شجرة نبوغه فيساقط عليه منها ألذ الثمار طعمًا وأكبرها حجمًا.

وقد كان شيلر موفقًا في هذه المقارنة موفقًا في إعجابه ببراعة جوته وخصب قريحته فقد أنقاد له الشعر ووضع هذه القصة في أقصر وقت وتكلف فيها أقل عناء وجاءت على هذه السرعة والسهولة من أحسن الآيات التي أخرجها للناس.

يحتاج الشعر الحماسي إلى موضوع له خطر وجلال وقد وفق جوته إلى هذا الموضوع وهو الثورة الفرنسية. وأين تقع حرب طروادة من الثورة الفرنسية، ولكن جوته لم يتخذ الثورة أصلًا للقصة وإنما اتخذها إطارًا لها ورأى أن هذا يكفي لإرضاء إلهة الشعر القصصي. فأما أبطال هذه القصة. فقد أختارهم جوته بين هذه الطبقة الوسطى التي ظهرت بالسيادة الفعلية في فرنسا والتي تطمح إلى السيادة في ألمانيا. وقد أحس جوته من إلهة الشعر القصصي نفورًا من هؤلاء الأبطال العاديين إن صح هذا التعبير ولكنه أستطاع أن يزيل هذا النفور وأن يطلق لسان الشعر القصصي بمآثر هؤلاء الأبطال.

هل أنا في حاجة إلى أن ألخص لك هذه القصة التي هي بين يديك؟ لابد من ذلك في أسطر قليلة لترى موضع البراعة في قمة جوته:

قوم من الألمان المجاورين لفرنسا قد رأوا الثورة ففتنوا بها وخليتهم مبادئها العالية ،ولكنهم لم يلبثوا أن رأواما أثارت من الحروب وإذا هي

تطردهم من بلادهم وإذاهم يعبرون الرين مشردين. وهم في طريقهم يمرون بمدينة ألمانية صغيرة فتبتدئ القصة في هذا المكان. تبتدئ فيه وتنتهي فيه في أقل من يوم. ذلك أن أهل المدينة قد هرعوا إلى الطريق العامة ليروا هؤلاء المشردين وليحملوا إليهم مايستطيعون تقديمه من المؤونة. وكان بين أهل المدينة أبوه صاحب فندق وقد خرج يحمل إلى هؤلاء المشردين ماجمعت له أمه من طعام وشراب وكسوة فرأى بين هؤلاء الناس فتاة بارعة الجمال رزينة رصينة لم يكد يراها ويتحدث إليها حتى شغفت قلبه فعاد إلى أسرته وقد جن بها جنونًا.

وكان أبوه وأمه شديدي الرغبة في تزويجه، وفي تزويجه من فتاة غنية لها ثروة ضخمة ومكان رفيع في المدينة. وكان أبوه شديد الحرص على هذا الزواج لأن فيه الثروة والرفعة معًا ولكن الفتى لم يظهر ميلًا إلى هذا الزواج بل أظهر منه نفورًا وعنه أزورارًا فسخط أبوه وأشتد سخطه وأنصرف الفتى محزونًا كئيبًا ثم تتبعه أمه باحثة عنه حتى تظفر به في ظل شجرة فإذا هو يائس قد اعتزم أن يفنى ما بقي من أيامه في الحرب دفاعًا عن مدينته أن تعرضت للخطر. وما تزال أمه به حتى تعلم عليه وإذا هو مشغوف بهذه المهاجرة يريد أن يتخذها له زوجًا وما أسرع ماتطيب أمه نفسها بهذه الفكرة وما أشد ما تجتهد بإقناع الوالد بها ولكن الوالد مغضب سيء الظن لايطمئن إلى هذا الرأي إلا كارهًا وعلى أن يذهب صديقان أحدهما صيدلي والآخر قسيس ليعلما علم الفتاة. فيذهبان ويرافقهما الفتى وقد رأيا الفتاة فأعجبتهما ورضياها للفتى زوجًا وعادا بهذا النبأ إلى الأسرة وتخلف الشاب ليعلن حبه إلى الفتاة. ولكنه لم يجرؤ على ذلك، لأن الفتاة قد ملأت نفسه

هيبة وروعة ولأنه رأى في أحينهاخاتم الخطبة ولكنه مع ذلك يعرض عليها الخدمة في بيته فتقبل ولعلها أحست حب الفتى ولعلها طمعت فيما هو خير من الخدمة ويعودان مشيا إلى البيت وقد أنقضى النهار وأقبل المساء ثم تبعته العاصفة. ولا يكاد الفتى يدخل مع صاحبته على أبيه وأمه وصديقيه حتى يزداد الأمر تعقيدًا. الفتى لم يعبئ صاحبته بحبه وإنما عرض عليها الخدمة وأبوه لايعرف إلا أن هذه الفتاة ستكون زوجًا لأبنه فهويسألها أأعجبك الفتى فيسوء ظن الفتاة بهذا السؤال ويكون حوار مؤلم تعزم معه الفتاة على أن تعود أدراجها ولكن كل شيء ينجلي ويعلن الحب وتكون الخطبة.

هذا تلخيص أقل ما يوصف به أنه سخيف لا يدل على شيء مما في القصة من جمال وبراعة ولكني قد قدمت هذا السخف لتستكشف أنت كيف يستطيع شاعر نابغة كجوته أن يخرج من قصة يسيرة كهذه آية فنية كهذا الكتاب الذي أضعه بين يديك، ستجد هذه البراعة في تصوير أشخاص القصة بمالهم من حياة وشعور وذكاء وخلق. مما تجد عند الألمان ومن صفات أخرى تجدها في الناس جميعًا. بما تجري به ألسنتهم من حديث ساذج ولكنه خصب كأخصب ما يكون الحديث. فيه تصوير لحياة الطبقات الوسطى في المدن وفيه تجلية لهذه الحكمة الرائعة التي تسيطر على حياة الناس مهما تختلف الأجيال والأزمان. نعم وستجد هذه البراعة في هذا التصوير الخفيف الأخاذ للطبيعة الحية في المدينة ومن حولها في غير تكلف ولابحث ظاهر ولا إستقصاء للألفاظ الخلابة. نعم وستجد هذه البراعة بنوع خاص إن كنت قد قرأت الإلياذة والأوديسا حين تحس التشابه

بين هذين النوعين من الشعر في الوزن أولًاوليس هذا بالشيء الذي يعنينا وفي الأسلوب والسذاجة بعد ذلك، وهو الشيء الذي يجب أن نقف عنده ونلتفت إليه.

أبطال جوته كأبطال هوميروس فيهم سذاجة حلوة وفيهم دعة كلها عذوبة وفيهم على ذلك شده فيما لابد من الشدة فيه. يتحدث بعضهم إلى بعض فيمزجون أغراض الحياة اليومية بهذه الحكمة الشعبية الخالدة؛ ويصورون لك أنفسهم في هذا الحديث. وهم إذا تحدثوا أحيوا من حولك كل شيء وأجروا الحركة في كل شيء. وأشركوك معهم ومع الأشياء في هذه الحركة وفي هذه الحياة. وهم لا يحبون مانألفه نحن من الإيجاز في الحديث والأعراض عما لاحاجة إليه ولكنهم يلمون بكل شيء ويفصلون كل شيء ويكشفون لك عن أشياء قيمة في هذا التفصيل الذيكنت ترى أن لاحاجة إليه.

وفق جوته من غير شك كل التوفيق، لا أقول في محاكاة هوميروس وأصحابه، بل أقول في الملاءمة بين فن هوميروس وأصحابه، وبين الحياة الحديثة آخر القرن الثامن عشر.

أما في ألمانيا فقد فاز جوته بإعجاب عظيم حين أذاع هذه القصة. فتن بها الشعب، ورضي عنها أكثر النقاد، وتنكر لها بعض الحاسدين. ولكنها لم تبلغ ثلاث سنين حتى تجاوزت ألمانيا واللغة الألمانية. وإذا هي تترجم إلى الفرنسية والإنجليزية والإيطالية. وتمضي بعد ذلك أعوام، وإذا هي تترجم إلى اللاتينية. ويرى جوته هذه التراجم وينظر فيها ويرى هذا

الفوز ويقول في آخر حياته أن هذه القصة قد بعثت نفسه من الرضي مالم تبعثه قصة أخرى من قصصه المختلفة.

فإذا انتصف القرن التاسع عشر كانت هذه القصة موضوع رسالة للدكتوراه في السوريون فإذا تقدم هذا القرن كانت هذه القصة موضوع البحث الواسع العميق في البيئات العلمية والأدبية المختلفة في أوروبا.

وينتهي القرن التاسع عشر ويتقدم القرن الذي نحن فيه– العشرين – ويحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة جوته ونفكر نحن في هذا الاحتفال ثم يحال بيننا وبينه فنتفق أنا وصديقي عوض على أن نحتفل بهذا العيد كما نستطيع.

وأي أسلوب في الاحتفال بجوته أحسن من أن يترجم عوض هذه الآية من آياته ومن أن أنوب عنه أنا في تقديمها إلى القراء. وقدأشترط على ألا أذكره بخير وأنا عند شرطه. ولكنه لن يستطيع أن يمنعني من أن أعلن راضيًا مبتهجًا أنه قد أستطاع في ترجمته العربية أن ينقل إلينا نقلًا صحيحًا ما قصد إليه جوته في قصته هذه من السذاجة العذبة الخصبة معًا. وإذًا فلغتنا العربية قادرة على أن تسع الفنون الأدبية لجوته إذا وجد مترجمون كعوض. وإذًافقد أستطيع بعد أن نبت عنعوض في تقديم هذا الكتاب إلى القراء أن أنوب عن القراء فأهدى إلى صديقي وصديقهم أجمل التهنئة وأصدق الشكر،

طه حسين

هرمن ودروتیه

قصيدة (إيلجيا)[1]

إذن لقد كان جرمًا أن أثار بروبرتيوس[2]
في نفسي حماسًا؛ وأن قد اتخذت مارسيال–
ذلك الوقح الجريء – رفيقًاوصديقًا..
أجل كان جرمًا أن صاحبت القدماء
ولم أنبذهم في مدرستهم ، ورائي ظهريًا.
وأن قد رافقوني – في الحياة –

(١)لهذه القصيدة تاريخ لابد من ذكره: ذلك أن جوته وشيلر كانا يكتبان قطعًا شعرية قصيرة اسمها إكسنيا Xenieينتقدان بها معاصريهم ويسخران منهم. وقد رد هؤلاءالنقد بمسئله، وطعنوا في كثير من مؤلفات جوته. وبهذه القصيدة (وهي من نوع خاصأسمه «إلايليجيا» يرد جوته على الذين أنتقدوه ولاموه على تشبهه بكتاب اليونانواللاتين.ولمتكنلهذهالقصيدةأولًاعلاقةبكتابهرمنودروتيه،لولاأنهفيآخرهايعلن للناس كتابه الجديد. والمنحى الذي يريد أن ينحوه فيه: أن يقص قصة ألمانية عصرية على نمط قديم: على طراز شعر هوميروس – ولمتلحقهذهالقصيدةبكتابهرمنودروتيهإلافيسنة١٨٢١ أي بعد ظهور الكتاب بنحو٢٥ سنة. والمتكلم في هذه القصيدة هو بالطبع جوته نفسه.

(٢)بروبرثيوس**Propertius** أكبر شعراء قلاتين الذين نظموا القصائد التي من نوع إيلجيا.**Elegia** وليس معناها هنا مرثية.بل نوع من الشعر من وزن وشكل خاص. وقد أقتدى جوته بهذا الشاعر في كتابة القصائد الرومانية – التي ألفها بعد عودته من روما – أما مارسيال**Martial** فهو من أشهر شعراء اللاتين في النوع المسمىإيبجرام**Epigram**أي حكمة أو مثل. وتفيد أحيانًا معنى مقطوعة شعرية من غير نظرإلى الموضوع.وقد أتخذه جوته مثالًا في كتابه حكم البندقية **VenetianischeEpigramme**. وقد هوجم جوته من أجلهاتين المنظومتين وإلى هذا يشير هنا.

إلى لاتيوم راغبين طائعين[١]..

أمن الجرم أني جشمت النفس كل عناء

في إستطلاع ما بالطبيعة وما بالفنون من حسن وإبداع؟

وأن لست ممن تخدعهم الأسماء أو تقيدهم الأوضاع؟

وهل أجرمت إذ صمدت لدوافع الحياة الملحة،

فلم تبدل من طبعي ولا من شيمي؛

وإذ هتكت برقع الرياء الشائن بإحتقاروإزدراء؟

فياربة الفن[٢]إهذه الصفات هي غرسك

الذيغرسته في نفسي بجد ونشاط.

قد جعلها الغوغاء وصمات وهنات .

لأنهم يحسبونني كأحدهم.

بل إن الأخيارأنفسهم – على مابهم من صفاء ووفاء –

يريدون مني أن أسلك غير سنتي.

لكنني. أيتها الربة! لن أأتمر إلا بأمرك.

فأنت وحدك التي مازلت تبعثين في صدري

قوة الشباب،إذا ما أخلق جلبابه.

---

(١) إشارة إلى رحلته إلى إيطاليا، حيث كانت كتب القدماء مرشده الأول.

(٢) يخاطب إلهة الفن «**Muse**» على طريقة الشعراء في الشعر الحماسي.

وقد عاهدتني على هذا مدى الحياة..
فيا أيتها الربة!لتشملني اليوم عنايتك المقدسة
أضعافًا مضاعفة. فقد أصبح الرأس
وما تزينه الذوائب الجميلة كما عهدناه من قبل.
فماأحوجه اليوم إلى إكليل
يخدع به الناس ويخدع به نفسه!
وقديمًا كان قيصر[١]نفسهيلبس الإكليل مكرهًا لامختارًا.
فإن كان لي عندك، أيتها الربة!
غصن من الغار. فذريه اليوم على شجرته.
يزدد خضرة ونضرة،
عسى أن يحين يوم فأصير به جديرًا.
عما قليل يأتي المشيب،
فينثر زنبقه الفضي خلال الذوائب السوداء.
فلا تبخلي علي الآن بإكليل من الورد الجني يتوج سعادتي المنزلية[٢].

---

(١)قيصر: هويوليوس قيصر، وقد سمح له بلبس الإكليل دائمًا ليخفي به صلعه.

(٢) هنا يتكلم جوته بصراحة عن سعادته العائلية، وكان هذا عقب إتصاله بكرستيانا فوليوس وقد ولدت لهأبنه أغسطسوهو المذكور بعد. ويدعوها جوته في البيت التالي زوجه.. ومن الكتاب من يرى أن كتاب هرمن ودروتيه عبارة عن نشيد جليل في وصف السعادة المنزلية والحياة الزوجية. وفي هذه السطور يقوجوتة –

وإني لسعيد إذ أرى الزوجة تشعل النار

في موقد نظيف، من أجل طهي الطعام.

وإذ أرى الصبي يلقي بالأغصان فيها،

وهو يلهو ويلعب..

فإملئيأيتها الربة أقداحنا بالمدام!

ويا أصدقائي الذين يعشقون السمر.

والذين هم على شاكلتي ومذهبي!

أهلًا بكم إن لكم عندي أيًضا أكاليل!

فتعالوا نشرب أولًا نخب ذلك الرجل الجريء،

الذي خلصنا أخيرًا من هوميروس(١):

خلصنا من ذلك الاسم العظيم الهائل،

لكى يسلك بنا طريقًا أجل وأعظم.

ومن ذا الذي يجرؤ على التطلع لمرتبة الأله

متواضعًا –أنه لم يبلغ في الشعر بعد منزلة يستحق فيها إكليل الغار.ولكنه بلغ في سعادته المنزلية درجة عليا يستحق فيها إكليلًا من الورد.

(١) يشير إلى الكاتب الألماني ولف **Wolf** وهو من معاصري جوتهوكان بينهما معرفة ومودة.وهوأول من قال بأن القصائد المنسوبةإلى هوميروس (الإلياذة والأوذيسية) ليست من تأليف رجل واحد، بل من وضع كثيرين أطلق عليهم أسم الهومريين (**Homeriden**) وهم الذين يشير إليهم جوته هنا باسم آلهة ريود لو أتيح له أن يقلدهم.

ة؟ بل إلى مرتبة إله واحد؟

بيدأني، رغم هذا، أرى حسنًا – وإن جئت أخيرًا -

أن أكون أحد أولئك الهومريين..

فيا أخلاي! أنصتوا إلى هذا القريض الجديد؛

وأترعوا الأقداح بالراح؛

لعل في الصهباء والحب والصداقة

ما يحملكم على التسامح والأغضاء..

إني سأسوق أمامكم صورًا لحياة الألمان أنفسهم

في دار تجمع بين البساطة والهدوء.

حيث الإنسان يتعلم من الطبيعة

كيف يغدو إنسانًا كاملًا

وليكن رفيقنا اليوم روح ذلك الشاعر،

الذي سحرنا بيانه، إذ يقص علينا قصة (لويزا)

وكيف عقد لها بسرعة على الفتى الجديد بها[1]

وكذلك سأسوق أمام أعينكم

---

(1) قصة لويزا الشاعر الألماني **Voss** تشبه إلى حد ما قصة هرمن ودروتيه. ومنها أقتبس جوته موضوع هذا الكتاب.

صورة أليمة لذلك العهد الحزين[1].

وأريكم كيف يخرج الجنس الباسل الطاهر

وقد عقد له أخيرًا لواء النصر..

ولئن وفقت لإستدرار الدمع من مآقيكم؛

ولئن أخذتك نشوة الطرب لما أنشده الآن

فتعالوا عانقوني عناق المودة الخالصة.

وأسندوا صدري إلى صدوركم.

إن حديثنا اليوم حديث عقل وحكمة:

فلقد ألقي علينا هذا القرن[2]في نهايته

دروس الحكمة الغالية،

بما أجهدنا به القضاء، وابتلانا به القدر.

إن في قلبكم من السرور والطرب

ما يعلمكم القناعة والرضى بالقليل.

فلننظر، إذن، إلى تلكم الأيام الماضية:

---

(١)أي عهد الثورة الفرنسية

(٢) أي القرن الثامن عشر.وفي نهايته كتب هذا الكتاب. والدروس المشار إليها هي الثورة الفرنسية في كل أطوارها.

نظرة طمأنينة وإرتياح.

ولئن عنينا كثيرًا بمعرفة الرجال والشعوب

فلنتعلم، أيضًا، ما أنطوت عليه الجوانح.

وما استقر في أعماق النفوس.

يكن لنا في هذا من السرور أوفي نصيب.

النشيد الأول

كاليوبيا[1] KALLIOPE

(إلهة الشعر الحماسي)

صروف القضاء وعطف القلوب

لعمري ما رأيت هذا الميدان ولا هذه الطرق خلاء قفرا كما أراها اليوم. وكأنيبها قد كنستكنسًا، أو بسط عليها الموت جناحيه. فلا أكاد أبصر من أهل المدنية جميعًا خمسين رجلًا.

إن حب الإستطلاع لذو سلطان على النفوس! فقدهرع الناس وتدافعوا من كل صوب، مسارعين إلى رؤية ذلك القطار الحزين من اللاجئين التعساء.

إن بيننا وبين ذلك الجسر الذي سيسلكونه سير ساعة من الزمان، ولابد بعد ذلك من الإنحدار والمشي وسط الغبار وفي حر الظهيرة.. ولن تراني مخليًا مكاني، من أجل رؤية ذلك الشقاء، الذي ترزح تحت عبئه تلك

---

(١)الكتاب مكون من تسعه أناشيد، وكل نشيد عنوانه أسم من أسماء آلهات الفنون **Muse**كما فعل هردروت: كأنما المتكلم في كل نشيد هو الموسا نفسها. وآلهة النشيد الأول هي إلهة الشعر الحماسي: أو شعر الملاحم**Epos**. لأن الكتاب هو من هذا الطراز. ولكل نشيد عنوان ثان يدل على موضوعه وهو هنا صروف القضاء وعطف القلوب، لأن القضاء نزل بكثير من الهاربين اللاجئين في عهد الثورة الفرنسية. فهاجروا إلى نهر الرين فعطفت عليهم قلوب الناس كماسنرى في النشيد.

الجماعات الهاربة؛ وليس بيدها سوى القليل مما أستطاعت إنقاذه حين أكرهت على ترك أوطانها الجميلة وراء الرين والإلتجاء إلى ديارنا[١]، حيث يطوفون بأرجاء هذا الوادي الخصيب، وبين منعطفات نهرنا الفياض.

ولعمري لقد أحسنت صنعًا أيتها الزوجة، إذ هزتك الأريحية، فبعثت أبننا لكي يحمل إلى هؤلاء البائسين بعضالملابس القديمة وشيئًا من الطعام والشراب. فإن العطاء فرض على ذوي اليسار.

وإني لشديد الإعجاب بفتانا إذ أراه يسوق المركبة بمهارة فائقة، وقد أخضع الجياد، يسيرها كيفما شاء. وتعجبني مركبتنا الجديدة، فهي حقيقة على شيء كثير من الحسن. ومن السهل أن يجلس بها أربعة أشخاص دون مشقة أو عناء. عدا السائق الذي يجلس على مقعده الخاص.

وهو اليوم يسوقها منفردًا لم يصاحبه أحد.. أرأيت كيفدار بها حول ناصية الطريق بسهولة تامة؟.

هكذا كان صاحب فندق الأسد الذهبي يتحدث إلى زوجه وهو جالس في مدخل داره مستريحًا مطمئنًا.

فقالت زوجه، وقد أوتيت شيئًا كثيرًا من العقل والذكاء: إني أيها الوالد[٢]لست بالتي هي ما عندها من قديم الثياب والأقمشة عن طيب خاطر؛ فإنها أشياء تفيبشتى الأغراض والحاجات. وليس من السهل شراؤها

---

(١) هذه الجماهير جاءت من الناحية الغربية لنهر الرين، أي من البلاد الألمانية المتأخمة لحدود فرنسا مثل الإلزاس... وهؤلاء الألمان حين أرادوا الفرار مما سببه لهم الإحتلال الفرنسي من الشقاءاضطروا لأن يجتازوا نهر الرين إلى الناحية الشرقية (الناحية اليمني) حيث المدينة المنورة التي تدور فيها حوادث هذا الكتاب.

(٢)عبارة مألوفة عند الأوربيين في خطاب المرأة لزوجها متى أصبح ولدًا. وكذلك الأب ينادي زوجه بيا أم!

بالمال حين تغدو في حاجة إليها. لكنني اليوم لم أتردد في بذل مقتنيات حسنة من الألبسة والأغطية.فلقد سمعت أن فيهم أطفالًا صغارًا وشيوخًا فانين يمشون عراة أو شبه عراة.

فهل أنت صافح عني إذ لم أحجم عن الإغارة حتى على خزانة ثيابك أنت. ومما أخذته منهاجبة نومك[1] ذات الأزهار البديعة المطرزة بالحرير الهندي على قماش من القطن الثمين، ومبطنة بأحسن الصوف وأغلاه. ولم أتردد في بذلها لهؤلاء البائسين. لأنها كما تعلم قد غدت قديمة مهلهلة ومن طراز عتيق.

فتبسم صاحب الفندق، وقال: إنيليسوءني فقد هذه الجبة القطنية القديمة. فإنها بضاعة شرقية أصيلة، ولا يتسنى وجود مثلها اليوم.على أني الآن لم أعد أرتديها. فقد أصبحنا في زمان يراد منا فيه أن نلبس دائمًا العباءة والكساء البولوني وأن نحتذي النعال الطويلة دون القصيرة. وحرم علينا حتى لبس القلانس الخفيفة.

فقالت زوجه: ها قد عاد أدراجه بعض أولئك الذين ذهبوا لرؤية الوافدين. فلعل المشهد قد أنتهي. أنظر إلى أحذيتهم.كيفتراكم عليها التراب. وإلى وجوههم كيف تلتهب لما عانوه في هذا الحر الشديد. وهاهم أولاء يتناول كل منهم منديله ليمسح به عرقهالمتصبب، ولو أني مكانهم لما أنهكت قواي، بعد ذلك المشهد، بكل هذا العدو والإسراع. ولعمري إنهم سيشبعوننا البوم قصصًا وأحاديث.

---

(١) ترجمة كلمة **Schlafrock** وهي المعروفة بالروب ديشامير.

فسكت الوالد مليًا. ثم قال في شيء من التأني والتأكيد: إنا بعيدو العهد بمثل هذا الهواء الصحو الجميل في زمن الحصاد. وغدًا لا بد لنا أن نشرع في جني الثمار، كما حصدنا البرسيم من قبل دون أن تفسده الأمطار.. ما أشد صفاء السماء، إن العين لاترى سحابة واحدة تشوبه. وتهب علينا من الشرق صبا عليلة باردة تنعش الروح.

إن هذا الهواء من الطراز الثابت الذي لا يتغير بسرعة[١]. وهاك القمح قد نضجت سنابله وأمعنت في النضوج. فغدًا نبدأ حصاد هذه الغلة الوافية الوافرة.

في أثناء كلامه هذا كانت جماهير الرجال والنساء تتزايد.وكلهم يخترق الميدان قاصدًا إلى داره. وكان يرى في جملة العائدين جارهم التاجر الغني. أكبر تجار البلدة وأعظمهم شأنًا. وقد دخل الميدان من الناحية الأخرى ومعه بناته في مركبة مفتوحة من الطراز الذي يصنع في مدينة لاندو.

وهكذا عادت إلى الطرقات الحياة وأشتدت بها الحركة. لأن المدينة، على صغرها، كثيرة الأهل والسكان. وبها كثير من الصناعات والحرف الناجحة.

كان الزوج والزوجة جالسين في مدخل الفندق، ينظران إلى هذه الجموع، يموج بعضها في بعض، ويتسليان بما يشاهدان أمامهما، ويتبادلان العبارات والإشارات. إلى أن قالت الزوجة الكريمة: أنظر! ها هو ذا القس قد عاد وهو ميمم شطرنا. وهذا جارنا الصيدلي قد رجع أيضًا.

---

(١) إن صاحب الفندق كثير التفاؤل لأن الطقس يتغير فعلًا قبل إنتهاء اليوم.

وسيقصان علينا من غير شك كل ما رأياه هناك، مما لا تسر لمرآة العيون.

وحقًا وصل الصديقان إلى الفندق، وحييا الزوجين أحسن التحية. ثم جلسا على دكتين من الخشب في الدهليز. وبعد أن نفضنا الغبار عن أقدامهما، وتروح كل منهما بمنديله، وتبادل الجميع عبارات التحية والسلام، أخذ الصيدلي يتكلم في شيء من الغيظ والكمد فقال: إني لأعجب كل العجب لهؤلاء الناس – وهم في هذا جميعًا سواء – إذ يحلو لهم أن يقفوا ويحملقوا لما يصيب جارهم من مكروه، ولما ينزل به من خطب. فتراهم يسارعون ويتدافعون، لكي ينظروا النيران يندلع لهيبها وتجتاح ما حولها.. ويبادرون إلى رؤية المجرم المسكين حين يساق إلى الموت. واليوم نراهم جميعًا قد أنطلقوا ليشاهدوا ما حل بأولئك الطريدين من شقاء وما يعانون من آلام. وقلما يفكر أحدهم أن قد يحل به ما ألم بأولئك التعساء، إن عاجلًا أو آجلًا. اللهم إني أجد في هذا خفة لا تغتفر، وإن كانت مغروسة في طباع البشر..

فتكلم القسيس وكان رجلًا ذكى العقل، كريم النفس؛ به زينة أهل المدينة جميعًا؛ وهو بعد أدنى إلى الشباب وإنكملت رجولته. وكان أدرى من صاحه بالحياة، وأعرف بما يريده السامعان من الأنباء. ناهيك أنه رجل قد طالع الكتب المقدسة وتعمق في درسها؛ وأمتلأ صدره بما حوته من الآيات الغالية، التي تكشف عما تكنه الصدور من الأسرار، وما تضمره المقادير لبني الإنسان. وكذلك كان ملمًا بأحسن ما في الكتب الدنيوية.

وتكلم القسيس فقال: لست أود أن ألوم بني الإنسان من أجل أعمال ضررها يسير.تمليها الغريزة، ويدفعهم إليها الطبع. فإن غرائز الناس، التي تقودهم على رغمهم، وتتحكم في أهوائهم فتسيرهم كما تشاء، تلك الغرائز كثيرًا ما تصيب النجاح والتوفيق حيث يفشل العقل والتدبير، وتقصر الحكمة والذكاء.. قل لي بربك إذا كان شغف الإنسان بالإستطلاع لا يجذبه بتلك القوة الساحرة، فأنى له أن يدرك ما بالكون من حسن النظام وجمال التنسيق؟ فالإنسان في مبتدأ أمره شغف بالبحث عن كل جديد. بعد هذا يسعى وراء النافع المفيد، وأخيرًا تلقاه يطلب الخير وينشد الصالح من الأمور. لكي يرتفع بهذا شأنه ويعلو به ذكره. فهو في شبابه ترافقه الخفة والرعونة وتلازماته أينما سار. وتخفيان عن عينه الأخطار التي قد تعترض طريقه. وإذا حلت به كارثة أو نزلت به ملمة فسرعان ما تمحوان آثارها وتزيلان آلامها. ولنعم الرجل الذي يستطيع أن يولد من رعونة الشباب هذه عقلًا رصينًا يجد ويدأب في السراء والضراء على حد سواء. فيفعلالخير ويعلي من شأنه. ويصلح الفاسد ويزيل الشرور.

وكانت السيدة الفاضلة قد عيل صبرها فقالت تخاطب الرجلين:ولكن ألا تحدثاننا بما رأيتما اليوم؟ فبودي لو أحطت بهذا علمًا.

فتكلم الصيدلي جارهم في جد وهدوء، فقال: هيهات أن يعود إلى قلبي السرور بكل هذه السرعة بعد الذي شاهدته اليوم. ومن ذا الذي يستطيع أن يصف لكم ذلك الشقاء ذا الأشكال والألوان.. لقد لاح لنا من بعيد مثار النقع، ونحن لم ننحدر بعد إلى السهوب. وكانت جموع الطريدين قد أخذت تصعد ثم تنحدر من كثيب إلى كثيب. فلم يكن من

المستطاع أن تتبين الأعين من أمرهم شيئًا. ولما بلغنا الطريق التي تعترض الوادي وتصل بين جانبيه، رأينا الناس ما بين راكب وراجل، يتزاحمون ويتدافعون. وأبصرنا أيضًا –ويالأسف– بعض أولئك التعساء، وقد أخذوا يمرون بنا، فأستطعنا أن نقرأ في وجوههم ما يعانيه الطريد الشريد من مرراة وألم، وما يحسه، رغم هذا، من سرور وفرح، إذ تسنى له أن ينقذ حياته من بين مخالب المنون.أجل لقد كان من المؤلم حقًا رؤية تلك الأمتعة العديدة من كل نافع مفيد، مما نراه عادة في كل منزل عنى أصحابه بإعداده وتنسيقه. فيجعلون لكل متاع مكانه الخاص به، تتناوله الأيدي بسهولة كلما دعت إليه حاجة ثم ترده إلى مكانه.. والآن كنا نرى كل تلك الأمتعة.

وحملت على عجل فوق مطايا وركائب من كل نوع ومن كل طراز. فكنت ترى الغربال وأغطية الصوف ملقاة فوق خزانة الثياب. والفراش الوثير وسط وعاء العجين، وغطاء المائدة ملقى على المرآة.. ولقد مارسوا من غير شك ذلك الفزع الذي قاسينا شره نحن منذ عشرين عامًا في أثناء الحريق الهائل. إذ طاشت بنا الأحلام، فأخذ الناس يجمعون الغث من الأشياء ويتركون الثمين من خلفهم، وكذلك شاهدت اليوم أولئك المشردين وقد أحتقبوا من تافه الأمتعة وحقيرها، ما أضنوا به مطاياهم ودوابهم: فمن فرش بالية. إلى براميل قديمة. إلى بيت للطيور أو قفص للعصافير. كل هذا وأمثاله قد جمعوه وأحتزموه بدقة وعناية، لكن من غير عقل ولا تدبر. ولكم رأينا اليوم من طفل صغير أو إمرأة ضعيفة. تلهث إعياء ونصبًا، وهي تنوء بما تحمله أو تجره من جوالق أو سفط أو باطية. كلهما مملوء مفعم

بأمتعة ليس فيها نفع ولا غناء.. فما أشد حرص الإنسان حتى على الحقير التافه مما ملكت يمينه!

وهكذا كانت جماهير الطريدين تسير في طريقها، وقد ثار من فوقها الغبار، وهي تمشي على غير هدى، وتتدافع من غير نظام: هذا تعبت دوابه ويريد أن يسير الهويني؛ وذلك عجل يريد أن يسرع في خطاه. ههنا تسمع صياح نساء وأطفال قد آدهن الزحام. وهناك تسمع خوارالدواب وعواء الكلاب؛ وهنالك تسمع عويل الشيوخ والمرضى، وقد أجلس كل منهم على ظهر مركبة قد حملت أقصى ما تستطيع أن تحمله؛ فهي تهزه هزًا عنيفًا.

وياليت هذا كل ما يكابدون. فإن الزحام الشديد كثيرًا مايميل بالعجلات عن الطريق ويدفع بها إلى حافة الجسر. فتهوى المركبة إلى الخندق، ثم تنقلب بما تحمله من متاع ومن ناس، ولحسن الحظ قد سقط الناس بعيدًا وسط الحقول، وأما الصناديق الثقيلة فهوت إلى جانب المركبة. ولقد خيل إلى من شاهدهؤلاء الناس عند سقوطهم أن سيراهم وقد حطمتهم تلك الصناديق والخزائن. بل سحقتهم سحقًا.. على كل حال لقد تحطمت المركبة؛ وبقي أصحابها حيارى ما لهم من معين. فقد تركهم الآخرون وانطلقوا في سبيلهم، يدفعهم التيار دفعًا، فلا يعنيهم سوى أمر أنفسهم. وقد أسرعنا نحو هؤلاء المرضى والشيوخ الهرمين الذين برح بهم السقام، بحيث لو كانوا في ديارهم وعلى فراشهم لكفاهم ما يعانون من ألم ووصب. فكيف بهم الآن وكلهم طريح الثرى مضعضع الجسم، يئن ويتأوه. وقد أحرق حر الشمس محياه، وخنقه الغبار المتطاير.

فقال صاحب البيت، وقد أثار الحديث في قلبه عاطفة الرحمة: ليت ولدي هرمن يلقاهم، فينعشهم ويكسوهم. أما أنا فا أحسبني أرغب في رؤيتهم، لأن منظر الشقاء يؤلمني، ولقد تأثرنا حينما سمعنا الأنباء الأولى عما يعانيه أولئك البائسون، فبادرنا مسرعين بإرسال شيء مما فضل عن حاجتنا، مساعدة للقليل منهم، وهكذا أستراح ضميرنا نوعًا ما.

والآن فلنترك ذكر تلك المشاهد الأليمة، فإنها سرعان ما تبعث الرعب في القلوب، فتملؤها بهموم وأشجان هي شر من الخطب الذي آثارها في النفس.

فهلم بنا إلى الحجرة الخلفية الصغيرة، ذات الهواء البارد العليل، فهي ليست معرضة لأشعة الشمس، والهواء الحار لا ينفذ إليها بفضل هذه الجدران السميكة. وهنالك فلتحضر الأم العزيزة لكل منا كأسًا من نبيذ العام الثالث والثمانين[1] وبهذه الكاس فلتنفض عنا غبار الهموم. أما هذا الدهليز حيث نحن الآن. فلا يصلح للشراب، إذ سرعان ما يحدق الذباب بأقداح الراح.

فأنطلقوا جميعًا إلى تلك الحجرة فرحين بتلك الكأس المنعشة. وهنالك أحضرت لهم الأم النبيذ الأبيض الصافي في قارورة مصقولة لامعة على صينية من الصفيح المجلو المضيء. وقد صفت فوقها أقداح من الزجاج الأخضر: وهي أقداحنبيذ الرين الحقيقية. وجلس الأصدقاء الثلاثة

(١) أي الذي صنع من عنب سنة ١٧٨٣ وكانت سنة أشتهرت بجودة عنبها وجودة الخمر التي صنعت من ذلك العنب. ووادي الرين من أشهر أقاليم أوروبا إنتاجًا للخمر.

حولمائدة مستديرة سمراء اللون، قد أجيد صقلها، ذات قوائم ضخمة متينة.

ولم تكد الأقداح تملأ حتى رفع صاحب الدار والقسيس كأسيهما، وتدافع الكأسان برفق.. بيد أن ثالثهم قبض علىكأسه مطرقًا مفكرًا. ولم يرفعها عن المائدة. فأخذ صاحب البيت يستحثه بعبارة رقيقة. وقال: هلم أيها الجار العزيز فأشرب معنا! ألا ترى أن الله جل شأنه، قد وقانا السوء برحمته وكرمه إلى اليوم، وإخاله سيرعانا في مستقبل أيامنا أيضًا. ومن يستطيع أن ينكر أنه تعالى منذ أبتلانا بذلك الحريق المفظع: فأنزل بنا ذلك العقاب الصارم، لم يزل بعدذلك يغمرنا بالسعادة ويشملنا بالرعاية والعناية، كما يعني المرء ويحرصعلى إنسان عينه وهو أعز الجوارح عليه.. بعد هذا كله أيحرمنا، سبحانه! هذه الحماية والمعونة؟ على أن قوته تعالى وسلطانه إنمايبدوان للأعين حين تنزل الشدائد وتحدق الأخطار.. أيمكن أنه وهو الذي أقام صرح هذه المدينة الزاهرة، وشيدها بأيدي بنيها المجدين، بعد أن كانترمادًا وأنقاضًا.ثم أسبغ عليها فضله وبركته، يعود اليوم فينزل بها الدمار والخراب؛ ويقضي على كل تلك الجهود؟

فقال القسيس بصوت هادئ رقيق وقد سره ما سمعه: تمسك بأهداب الإيمان. وأعتصم، ما أستطعت.بهذه الآراء؛ فبمثلها تغدو في أوقات السعادة رزينًا مطمئنًا، وهي في زمن الشقاء نعم السلوى والعزاء، ونعم الباعث للأمل والرجاء!

فأجاب رب البيت بعبارات تبدو فيها الرجولة والحكمة. فقال: لكم

كنت أحيي نهر الرين وتياره المتدفق، كلماعدت إليه بعد أسفاري ورحلاتي. ولكني قلما خطر لي أن ضفافه الجميلة ستصبح يومًا بمثابة السد المنيع، لندرأ به عنا الفرنسيين. وأن سيغدو مجراه الفسيح خندقًا ليقينا ويدفع الشرعنا. فأنظر كيف تحفظنا الطبيعة. وكيف يحمينا الألمان البواسل، وكيف يكلؤنا الإله جل جلاله! فأي أحمق يجحد أو يكفر؟ إن المحاربين قد سئموا القتال وأضنتهم الحروب، وكل شيء يدله على إقتراب الصلح والسلم. ومتىأحتفل الناس بالصلح، الذي يشتهيه الجميع منذ زمن، فإني أرجو أن نحتفل به نحن أيضًافي كنيستنا، فيمتزج صوت النواقيس بأنغام الأرغن، وقراءة صلوات الإبتهاج بصوت البوق.

وبودي يا سيدي القسيس لو أن ولدي هرمن يعقد له في ذلك اليوم على العروس. فيتقدم بها بين يديك إلى المذبح. فيكون ذلك العيد السعيد، الذي تحتفل به البلاد جميعًا، عيدًا لسعادتنا المنزلية في مستقبل الأيام.

وإني ليحزنني أن أرى هذا الشاب – على جده ونشاطه في أعماله – ساكنًا رزينًا، كثير الخجل والحياء، زاهدًافي رؤية الناس والتحدث إليهم. راغبًا حتى عن صحبة العيد، وعن الرقص وهو قبلة أنظار الشباب.

كان الوالد يتكلم على هذا النحو، ثم أمسك عن الكلام فجأة. وأخذ يصغي: فإذا صوت سنابك الخيل يقترب ويزداد جلاء ووضوحًا. والضوضاء آخذة في التزايد تدريجًا؛ ثم سمعت عجلات مركبة مسرعة تجري بصوت كأنه قصف الرعود. ووقفت فجأة لدى باب الدار.

النشيد الثاني

تربسيكورا[1] TERESTICHORE

(الهند الرقص)

هرمن

دخل الأبن إلى الحجرة، فإذا هو في حسن الصورة طويل القامة.. تلقاه القسيس بنظرات حادة نافذة، متأملًا قوامة وناقدًا حركاته بعين الباحث الخبير، الذي تخترق فراسته الحجب، ويستنبط الأسرار من غير عناء. وقال له بلهجة المخلص الأمين: إنك لتعود إلينا إنسانًا غير الذي عهدناه وعرفناه. وما أحسبني رأيتك يومًا ووجهك يمتلئ بشرًا وسرورًا، وفي ناظريك هذا البريق الذي أبصره الساعة.. إنك تقبل علينا فرحًا طروبًا. لأنك من غير شك قد قسمت الهدايا بين أولئك البائسين، فدعوا لك أطيب الدعوات.

فأجاب الفتى بألفاظ، فيها جد وهدوء: لست أدري هل فعلت شيئًا أحمد عليه. غير أني في كل ما عملت، لم أفعل غير الذي أملاه علي قلبي.

([1])الموسا التي تنشد هذا النشيد هي إلهة فن الرقص.وفي الحق أن لا مناسبة بينها وبين ما في هذا الفصل. ولا يعرف لماذا أختارها جوت دون غيرها عند التكلمعن هرمن وهو الذي ينفر من الرقص، على كل حال مادامت هنالك تسعة أناشيد في الكتاب وفي الخرافات تسع رياتللفن.فلابد أن تتولى كل واحدة الإشراف على أحد هذه الأناشيد. ولابد في بعض الأحيان ألا يكون هنالك تطابق بين ما هو معروف عن ربة الفن في العرف وبين ماهو منسوب لها هنا.

وها أنذا أقص عليكم القصص كله:

إنك يا أماه قضيت زمنًا غير قصير في جمع الأشياء وفي إختيارها. فلم تتهيأ الحقيبة إلا بعد لأي. وكذلك النبيذ والجعة، قد أستغرق إعدادهما زمنًا غير قليل — وحين أنطلقت أخيرًا من المنزل، وسرت في الطريق لقيت كثيرًا من الناس راجعين أدراجهم بنسائهم وأطفالهم، لأن جماهير اللاجئين كانوا قد أبتعدوا. فلما أدركت هذا الأمر، ثنيت أعنة الخيل. ووجهتها بسرعة تلقاء القرية، وقد أبلغت أنهم سيبيتون بها ليلتهم.

وبينما أنا أعدو بالمركبة في الطريق الجديد، إذ أدهشني منظر مركبة، ذات قضبان متينة، يجرها ثوران من أشد الثيرة قوة وأضخمها جسمًا، وإلى جانبهما فتاة تمشي بخطى ثابتة. وفي كفها عصا طويلة، وهي تقود هاتين الدابتين، على ما بهما من بأس وقوة، بحنكة وبمهارة: طورا تدفعهما للأمام، وتارة تردهما إلى الوراء.

وحينما أبصرني أقتربت من جوادي وقالت: لم نكن دائمًا حليفي الشقاء كماترانا الآن في طريقنا هذا. وما أعتدت يومًا أن أسأل الغريب عرفا أو ألتمس منه صدقة. والناس قلماتهب عن رضى بل لكي تتخلص من لجاجة السائل. أما اليوم فتدفعني الحاجة إلى الكلام: هنا قد أضطجعت على الحطب عقيلة رجل من ذوي اليسار، لم أستطع إلا بشق النفس أن أنجو بها، على هذه المركبة وبهذين الثورين وقد جاءها المخاض. وبعد ذلك وضعت طفلها، فلم نلحق بالآخرين إلا بعد حين. باتت وليس بها من الحياة إلا الذماء، وبين ذراعيها طفلها الرضيع، تحتضنه وهو عريان؛

وهيهات أن يستطيع أقاربنا أن يمدوا إلينا اليوم يد المساعدة؛ ولئن كانوا سبقونا إلى تلك القرية، حيث تبغي المبيت ليلتنا هذه، فإني أخشى أن يرتحلوا عنها قبل أن نصل إليها. فإن كان لديك شيء من كتان ليست لك به حاجة وكنت من أهل هذا الحي فلا تبخل به على البائسين.

عندما نطقت بهذه الكلمات، رفعت النفساء وجهها الشاحب من بين الحطب اليابس، وجعلت تنظر إلى؛ فقلت للفتاة: إن الصالحين من بني الإنسان كثيرًا ما توحي إليهم روح سماوية، فيحسون ما ألم بإخوانهم من مترية ومانزل بهم من ضيق؛ وكذلك أمي العزيزة كأنما ألهمت ما أنتما فيه من عناء، فأعطتني هذه الحزمة، وبها كل ما يسد حاجة ذلك الطفل العاري: ثم حللت عقدة الحبل وناولتها جبة الوالد، وشيئًا من الثياب والقماش، فشكرت لي صنيعي، وقالت ووجهها يفيض سرورًا: ألا إن السعداء لا يدركون أنه لم تزل في العالم معجزات تقع. أما في وسط الشقاء فإن الإنسان يحس يدالله وبنانه القادرة، حين تهدي الصالحين إلى صالح الأعمال. ألا فليسبغ عليك النعمة التي أسبغها علينا الآن بيديك!.

ولقد رأيت النفساء وهي فرحة تلمس بيديها الثياب المختلفة، كأنما سرها على الخصوص ملمس الصوف في جبة النوم. ثم قالت لها الفتاة: لنسرع الآن إلى تلك القرية، حيثتستريح الجماعة وتقضي ليلتها، ومتى بلغناها فسأبادر بتدارك كل ما يحتاجه الطفل، وكل ما يلزمنا. ثم أقرأتني السلام. وبالغت في شكري على صنيعى، ثم دفعت الثورين، فأنطلقت المركبة.

أما أنا فتريثت قليلًا، وحبست الجوادين عن السير برهة. فقد جعلت أحس في قلبي نزاعًا، وجعلت أتسائل: أأنطلق إلى القرية مسرعًا، وهنالك أقسم ما معي من الزاد بين سائر الناس، أم أكتفي بأن أعطيه كله لتلكم الفتاة، لتتولى توزيعه بينهم، بما أوتيته من حكمة وعلم، ولم يطل ترددي بل تبعت الفتاة على مهل، ولحقت بها بعد قليل، وقلت لها مصارحًا:أيتها الفتاة الصالحة! أن الذي أعطتنيه الوالدة ليس قاصرًا على الثياب التي تستر الجسد العارى، بل أضافت إليها زادًا وشرابًا كثيرًا. ولدي منه في داخل المركبة شيء ليس بالقليل. وقد صحت رغبتي في أن أضع بين يديك هذه الهبات أيضًا. ولعل هذه هي خير وسيلة للقيام بما عهد إلى.فأنت بلا شك تتولين تقسيمها بعقل وتدبير، أما أنا فيكون إعتمادي على محض الصدفة.

فأجابت الفتاة قائلة: سأتولى توزيعهباتك بأمانة. ويجب أن ينعم بها من هم أشد إحتياجًا إليها. وعند ذلك بادرت بفتح صندوق المركبة فأخرجت منه تلك القطع الكبرى من لحم الخنزير ثم الخبز فقناني النبيذ والجعة. حتى لم يبق لدي شيء. وما أشد شوقي لأن أعطيها أكثر مما أعطيت لولا أن قد ما في الصندوق.

وقد وضعت الفتاة تلك الهدايا جميعًا عند أقدام المريضة، وربطتها ربطًا محكمًا، ثم مضت في سبيلها، أما أنا فسقت الجوادين، راجعًا أدراجي إلى البلدة.

وعندما أتم هرمن حديثه، أخذ الجار الثرثار يتكلم فقال: سعيد

لعمري في هذه الأيام: زمن التشرد والإضطراب، سعيد جدًا من يعيش في داره فريدًا وحيدًا، لا زوجة تفزع إليه ولا ولد. ولهذا أراني اليوم سعيدًا، ولا أعدل بحالي هذه شيئًا. إذ لست أدعى والدًا؛ وما لي من طفل أرعاه، أو زوج أعني بأمرها.

ولقد كنت غير مرة أتوهم الهرب، فأجمع الغالي والثمين من المتاع: من نقود مدخرة ومن حلي خلفتها أمي البرة رحمها الله!ولمأفرط في شيء منها حتى الساعة لكني وجدت أن لا مفر من ترك الشيء الكثير مما لا يسهل الحصول عليه فيما بعد. ولقد يعز على أن أدع ورائي تلك الأعشاب والجذور. وإن لم تكن بالشيء القيم، فقد بذلت في جمعها مجهودًا غير قليل. بعد هذا إذا بقي مساعدي من ورائي، فإن في هذا ما يعزيني على هجري لمنزلي. ومتى نجوت بنقودي وبجسدي قد أنقذت كل شيء، وما أسهل النجاة على الرجل الوحيد!.

فقال له هرمن مؤكدًا: وما أراني أيها الجار مقرًا لك على ما تقول. بل أني أعاتبك على التحدث بمثل هذا القول. أيجوز للرجل ذي الجدارة والفضل، ألا يفكر وقت الشدة أو الرخاء إلا في نفسه، فلا تحرك قلبه عاطفة؛ ولا يجد لذة في مشاطرة غيره السرور والحزن. أما أنا فلعمري ما أحسست كاليوم رغبة في أن أرتبط برباط الزواج، فكم من فتاة صالحة تعوزها حماية الرجل القوي، وكم من فتى حل به الشقاء فبات في حاجة إلى إمرأة تبعث في قلبه السرور.

هنا أبتسم الوالد وقال: أحبب إلي بسماع هذا الكلام منك! ولقلما

سمعتك تنطق بمثل هذه الكلمات الحكيمة من قبل.

وقالت الأم على الأثر: حقًا بني نطقت بالصواب وإنك لترى في والديك خير مثال لماذكرت. فلم يكن اليوم الذي أرتبطنا فيه يوم سعادة ورخاء. وبرغم هذا فإن ساعات الشدة قد زادت رباطنا وثوقًا ومتانة..

كان اليوم يوم أثنين في وقت الصباح. وإني أذكرهذا جيدًا إذ كان اليوم التالى ليوم الحريق الهائل، الذي أجتاح مدينتنا الصغيرة ودمرها – أجل ولقد مضى على ذلك اليوم عشرون عامًا كاملة. فقد كنا في يوم أحد كما نحن اليوم، وكان الهواء حارًا جافًا ولم يكن بالمكان ماء إلا القليل. وكان الناس يتنزهون، مرتدين أحسن ثيابهم، وقد أنطلقوا إلى القرى وإلى الحانات والأرحية. فأشتعلت النار فجأة في طرف المدينة.. ثم أخذت تجتاح الطرق بسرعة هائلة، وفي أثرها رياح شديدة التيار قد أثارتها النيران، ولم يمض قليل حتى ألتهمت النار مخازن الغلال، بما تكدس فيها من محصول تلك السنة الغنية. الكثيرة الخيرات.وأحترقت الطرقات جميعًا حتى الميدان. وألتهمت النار دار والدي وكانت قرية من هنا، كما ألتهمت هذه الدار أيضًا. وما أستطعنا أن ننقذ من متاعنا إلا القليل.

في تلك الليلة الليلاء بقيت ساهرة عند المروج في ظاهر المدينة، أحرس الصناديق والفرش. إلى أن غلبني الغاس فنمت، وعند الصباح أيقظتني برودة الفجر، فنظرت فإذا الدخان المتصاعد والأنقاض الملتهبة بين الأسوار والمداخن العالية.. وقد أنقبض لهذا المنظر صدري.

وبرغم هذا لم تلبث الشمس أن طلعت في كامل روعتها وبهائها،

فبعثت في نفسي روح البسالة والجلد، فنهضت على عجل، وأنطلقت وبنفسي رغبة ملحة في أن أتفقد الموضع الذي كانت فيه دارنا، ولأنظر لعل دجاجنا قد نجا، فلقد كنت أحبه حبًا جمًا؛ وكنت بعد في مثل سذاجة الأطفال.

جعلت أتمشى فوق أنقاض الدار والحديقة؛ ولم يزل يتصاعد منها الدخان، وقد أصبح المسكن الأمين قفرًا بلقعًا. ورأيتك في تلك الساعة مقبلًا من الناحية الأخرى تتفقد المكان، وكان جواد من جيادك محتبسًا في الإصطبل المدمر. وقد تكدستفوقه كتل من الخشب المحترق والأنقاض المضطرمة؛ بحيث لم يكن للجواد أثر يرى.

وهكذا كنا واقفين: أحدنا قبالة الآخر، مطرقين حزينين، وقد تداعى الجدار الذي كان يفصل بين دارينا. فقبضت أنت على يدي وقلت لي: ما الذي جاء بك إلى هنا ياليزا؟ أبتعدي فإنك تحرقين نعليك! فإن بالأنقاض نارًا حامية تحرق نعلي، على ما بهما من غلظ ومتانة.. ثم حملتني بين ذراعيك وأخرجتني من فناء منزلكم، الذي ألتهمته النيران. فلم تبق منه سوى الدهليز الكبير بقوسه المعقودة، على نحو ما نراه الآن. وهناك أنزلتني، وجعلت تلثمني، وجعلت أدفعك عني، فتكلمت عندئذ بكلمات تنم عن الحب المتين، كما تنم عن العقل الرصين. فقلت: أنظريإلى الدار، كيف غدت أثرًا بعد عين!فلا تبرحي أو تساعديني لأقيم بناءها، وأشيد صرحها. وأنا كذلك سوف أعاون باك على بناء داره.

لم أفهم لأول وهلة معنى هذه العبارات، حتى جاءت أمك إلى والدي،

وعقد لنا – على عجل – زواج ناعم سعيد.. ومازلتإلى اليوم أذكر، في شيء من السرور.تلك الأنقاض المضطرمة، وأرى ماثلة أمام عيني شمس ذلك اليوم. وملؤها الروعة والجلال. فلقد رزقت الحليل في ذلك اليوم. ورزقت بعد قليل ولدي البكر. والمدينة بعد خراب بلقع.

من أجل هذا، ياهرمن! أحمد لك هذا الإيمان، وأناشدك أن تبادر فتختار لك في هذه الأوقات العصيبة، فتاة صالحة. تخطبها، على رغم هذه الحرب الضروس، وما بها من تخريب وتدمير.

وتكلم الوالد بشيء من الحماس قال: ألا إنه لخاطر سعيد ماقد خطر لك أيتها الوالدة. والحكاية التي قصصتها صحيحة في كل جزء من أجزائها. ولكن هنالك حال خير من تلك الحال. فليس بمقدر لكل إنسان أن يبتدئ حياته من جديد. فيجد وينصب، كما كنا نحن نجد ونتصب. وإنما السعيد حقًا من أسلمه الولدان دارًا عامرة، ثم يتسع رزقه فيزيد في جمالها وزينتها.

إن البدء في كل شيء أمر عسير، وعسير بنوع خاص البدء في إقامة منزل وعمارته.وحاجات الإنسان كثيرة متعددة، وأثمانها تزداد في كل يوم. فيبذل المرء جهده كييزداد ماله.. ولهذا أرجو ياهرمن أن تبادر بعد قليل بإختيار زوجة طيبة، تدخل هذه الدار ومعها مهر صالح. والفتى الصالح أولى الناس بالزوجة ذات اليسار. وهو جدير وحقيق بأن تدخل إليه الحسناء، تتبعها الصناديق والأسفاط، فيها الهدايا النافعة. وليس من العبث أن تقضي الأم السنين الطوال، في إعداد الأقمشة، التي تجمع بين الدقة

والمتانة من أجل أبنتها، وليس من العبث أن يهدي الأقرباء ما عندهم من الأواني الفضية. وأن يفتش الوالد في داخل أدراجه عما خبأ فيها من قطع الذهب النادرة الوجود. ليس هذا كله عبثًا، لأن الفتاة، بكل هذه الهدايا والمنح ستشرح صدر عروسها، الذي أختارها وأصطفاها على سائر النساء.

وإني لأعلم ما تحسه الزوجة الفتاة من إرتياحوإغتباط. حين تنظر إلى البيت الذي أتخذته دارًا لها، فترى في المطبخ وفي كل حجرة من الحجرات أوانيها التي جلبت معها، والفراش الذي فرشته، والمائدة التي أعدتها هي وبسطتها.. أجل وإني لمصر على ألا تدخل هذه الدار إلا عروس مجهزة مشورة.فإن الفقيرة لا تلبث أن يحقرها زوجها، وينظر إليها كما ينظر إلى الخادم، إذ دخلت الدار وليس معها إلا حقيبة خادم. والرجال قليلو الإنصاف وأوقات الغرام سريعة الزوال..

أجل ياعزيزي هرمن! لتملأن كهولتي سرورًا لو أنك أسرعت، فأقتدت إلى هذه الدار عروسًا من فتيات هذه الناحية، بل من بنات جيراننا: من تلك الدار الخضراء التي أمامنا. والرجل لعمري من السراة، وله تجارة وصناعة يزداد بهما في كل يوم غنى: وأي التجار لا يكسب ويربح؟ وليس له من البنات إلا ثلاث. ستؤول إليهن وحدهن كل تلك الثروة، وأما الأولى فقد خطبت وقضي الأمر؛ وبقيت الثانية والثالثة. ولكن لن تبقيا هكذا طويلًا. ولو كنت مكانك ماترددت حتى الساعة. بل لبادرت فظفرت بإحدى الفتاتين. كما فزت أنا من قبل بأمك العزيزة.

لميجدالفتى بدًا، أمام إلحاح والده وإصراره، من أن يجيب على مقاله. فقال في تواضع وحياء: لقد كانت إرادتي من قبل وفق إرادتكم اليوم: أن أختار إحدى بنات جارنا. فلقدنشأنا وربينا معًا. ولطالما لعبنا معًا في تلك السنين الغابرة لدى البئر التي في الميدان. وكثيرًا ما وقفت دونهن، أدفع عنهن شراسة الصبيان. بيد أن هذه أيام قد خلت. وقد وقر الفتيات في دارهن بعد أن كبرن. وأصبحن اليوم بعيدات عن ألعابنا الخشنة.

أما أدبهن العالي فأمر مسلم به. ولقد كنت أختلف إلى دارهن من حين إلى حين، تبعًا لإرادتكم، وإستبقاء للمودة القديمة. ولكني ما أحسست يومًا سرورًا أو إغتباطًا بصحبتهن والتحدث إليهن. فلقد كن دائمًا يجدن في موضعًا للنقد واللوم. وكان على أن أتقبل هذا كله منهن! فأحيانًا ألام لأن ردائيطويل وقماشه خشن ولونه قبيح ذميم – وآونة ألام لأني لم أحسن تصفيف شعري وتجعيده. حتى لقد صممت أخيرًا أن أتأنق في ملبسي وأتزوق، كما يفعل أولئك الفتيان من أولاد التجار، الذين ألقاهم أبدًا هناك في الآحاد، والذين تتدلى قطع الحرير من ثيابهم دائمًا في فصل الصيف. لكني لم أكد أفعل ذلك، حتى جعلن يسخرن مني فكان هذا مؤلمًا لنفسي، جارحًا لكبريائي، على أن الذيأسقمني وعناني حقًا أنهن كن ينكرن مني كل كلمة طيبة أونية صالحة أتقرب بها إليهن جميعًا، وإلى (مينا) الصغرى خصوصًا فلقد ذهبت لزيارتهن في عيد الفصح الأخير، ولبست في ذلك اليوم ثوبي الجديد، وهو المعلق في الخزانة الآن، ولبست شعرًا مستعارًامصففًا شأن بقية الفتيان، لكني لم أكد أدخلحتى جعلن يتخالسن الضحك.فلم أبد إشارة، كأن غيري المقصود بهذه السخرية.

وكانت (مينا) جالسة إلى البيانو، وكان والدهن جالسًا يصغي منشرح الصدر، وقد أطربه غناء أبنته، أما أنا فقد أستعصى عليإدراك الكلمات التي أشتملت عليها الأغاني، ولكني سمعت أسمين يترددان المرة بعد المرة وهما (بامينا) و(تامينو)[1] ولم أرد أن أبقى صامتًا لا أنطق بحرف. فلما أنتهى الغناء جعلت أسأل عن القطعة وعن ذينك الشخصين، فسكت الجميع وهم يبتسمون. ثم نظر إلى أبوهن، وقال: أليس صحيحًا ياصديقي أنك لا تعرف من بني الإنسان غيرآدم وحواء؟عند ذلك لم يستطع أحد من الحاضرين أن يمسك نفسه، فأغربت الفتيات في الضحك. وأرعد الفتيان ضاحكين، وقبض الوالد على بطنه بيديه.وملكتني أنا الحيرة فسقطت قبعتي من يدي. وبقى الجميع ممعنين في الضحك، حتى أثناء العزف والغناء. ولم أطق صبرًا على كل هذا فعدت مسرعًا إلى منزلي، وأنا نهبة للكآبة والخجل. فخلعت تلك الثياب وأودعتها الخزانة، وأنتزعت ذلك الشعر بأصابعي. وأقسمت لا وطئت رجلي عتبة دارهن بعد ذلك اليوم. وحق لي هذا فإن رءوسهن قد أمتلأت بالغرور والخيلاء، بقدر ما خلت قلوبهن من الحب.

ولقد علمت أني مازلت أدعى في دارهن (تامينو) إلى وقتناهذا

فقالت له الأم: ماينبغي لك ياهرمن أن تطول موجدتك على أولئك الطفلات – وما هن في الحقيقة إلاطفلات – ومينا الصغيرة فتاة صالحة، وكانت أبدًا تعطف عليك ومنذ عهد قريب كانت تسألني عنك. وتحسنلو

---

(١) **Pamina** و**Tamino** شخصان في إحدى أوبرات موزار الشهيرة وهي الناي المسحور (**Zauberfloete**). وفي السنة التي تجري فيها حوادث هذه القصة (حوالي سنة ١٧٩١) كانت هذه الأوبرا بعد حديثة جدًا، فلا ينتظر من فتى ساذج مثل هرمن أن يكون قد علم من أمرها شيئًا كثيرًا.

أتخذتها زوجًالك فأجاب الفتى مفكرًا: لست أدري، غير أن الكدر الذي أستولي على ذلك اليوم قد ترك في قلبي أثرًا عميقًا. فبت ومابي رغبة لرؤية مينا ولا للإنصات إلى عزفها وغنائها.

وتكلم الوالد في شيء من الحدة والغضب فقال: ما أراني واجدًا منك شيئًا ترتاح إليه نفسي. ولطالما قلت لك هذا مرارًا وتكرارًا. حينما كنت أراك وليست لك في الحياة لذة سوى الإهتمام بالمزرعة وبالخيل. وتلك لعمري أعمال يؤديها غلام من غلمان السادة ذوي اليسار. فكيف لمثلها ينصرف الأبن بدلًا من أن يقوم بما يرفع رأس أبيه بين أهل المدينة. ولطالما كانت أمك تعللني بالأماني الكذاب؛ حينما كنت عاجزًا وأنت بالمدرسة، عن تعلم الكتابة والقراة وحفظ الدروس كما يفعل سائر الفتيان. فكنت الأخير من بينهم جميعًا. ولعمري لقد كانت تلك حالًا لا مفر منها، مادام صدر الشاب خاليًا من الشمم والكبرياء. فلا يطمح ببصره إلى المعالي.. آه لو أن أبي عنى بأمري عنايتي بأمرك. فأرسلني إلى المدرسة وخصص لي المعلمين والمؤدبين! أجل لو أنه فعل هذالكنت اليوم شيئًا آخر غير صاحب خان (الأسدالذهبي).

عندذلك نهض الغلام وأقترب من الباب في صمت وفيسكون وهدوء يريد الخروج لكن الوالد أتبعه هذه الكلمات وهو حانق غاضب: أجل فلتذهب ولتنصرف عنا! وأنا عالم بما في رأسك من عناد وإصرار. أذهب إذن وأنظر في شئون الدار والمزرعة. كي لا أسمعك من التقريع أمره وأقساه!لكن حذار أن تجلب يومًا إلى هذه الدار فتاة من بنات الفلاحين رعاة الأبقار لتكون لأبني زوجًا! لقد عشت طويلًا وتعلمت كيف أعاشر

الناس وكنت أحتفي بهم. فيرجعون قريري الأعين، منشرحي الصدر. وتعلمت كيف ألاطف الغريب وأدخل على قلبه السرور. ولهذا لابد لي في النهاية من أن تكونكنتي فتاة طيبة. تنسيني بحلاوة خلقها ما قاسيتمن مرارة وعناء. ولا بد أن تجيد العزف على البيانو. ولابد أن تصبح داري ملتقى الطبقات الأنيقة من أهل المدينة. يفدونإليها ويقبلون على زيارتنا كما يفعلون أيام الآحاد في دار جارنا.

وهنا أمسك الفتى بمزلاج الباب. وفتحه بسكون وغادر الحجرة.

النشيد الثالث

طاليا[1] THALIA

(الهند الكوميديا)

سكان المدن

هكذا اعتصم الفتى المتواضع بالفرار، هربًا من ذلك الخطاب العنيف..

غير أن الوالد لم تهدأ ثائرته، وعاد إلى الكلام كما بدأ. فقال: إنك لن تستخرج من إنسان ما ليس فيه. وهيهات أن أشهد تحقيق أمنيتي العزيزة التي أتمناها أبدًا: وهي أن الولد يجب ألا يكون مشابهًا لأبيه، بل أعلى منه درجات. وإلافأين يكون مصير الأسرة، بل مصير المدنية كلها.إذا لم يكن هم كل فرد أن يحرص على تالده، ويستحدث الطريف الجديد، ويعني أبدًا بتحسين ما لديه؟..

ذلك هو الدرس الذي علمنا إياه الزمان. كما علمتنا إياه البلاد الأخرى.. وما ينبغي للإنسان أن يكون مثله كمثل نبات (عيش الغراب)، ينمو في الثرى، ثم يدركه العطب في المكان الذي نماه وأخرجه، دون أن

---

(١)في هذا الفصل يسخر المؤلف بالطبقات المتوسطة (البورجوا). وكلمة «سكان المدن» لا تؤدي تمامًا معنى بورجوا! فهؤلاء عادة جماعة ذوو يار يتشبهون بالخاصة ولكن عقليتهم السطحية تقربهم من العامة. فالهة الكوميدا إذن تلائم هذا النشيد تمامًا. وصاحب الفندق يمثل هذه الطبقة أحسن تمثيل هو والصيدلي.

يترك وراءه أثرًا فيه مظهر من مظاهر الحياة.

وحسب المرء نظرة يلقيها على الدار ليعلم من صاحب الدار، وما مبلغ ذكائه وعقله. كما نعلم كيف تدار المدينة وكيف تحكم لمجرد خطوات نخطوها في طرقاتها[1]. فحيث ترى الأبراج قد تداعت، والأسوار قد مالت. والخنادق والأزقة قد تكدست فيها القمامة وحيث الأحجار قد تقلقلت في كل بناء، فلا ترد إلى مواضعها. وحيث الدعائم توشك أن تنهار. والحاجة ملحة إلى دعائم جديدة. فحيث ترون ذلكم كلهفأيقنوا أن المدينة قد ساءت حكومتها، لأن الطبقات العليا إذا لم تفرض النظافة والنظام فرضًا على من دونها، فسرعان ما يعتاد أهل المدينة القذارة والإهمال، كما يعتاد الشحاذ لبس الرداء الخلق.

كثيرًا ما وددت لو أن هرمن يبادر بالقيام ببعض رحلات.. فلا أقل من أن يزور أستراسبورج وفرانكفورت، ويرى مدينة مانهيم الجميلة البناء والتنسيق. فإن من شاهد المدن الكبرى وما بها من نظافة ورواء، فلن يقر له قرار حتى يعجل بتجميل مدينته مهما كانت صغيرة.

أرأيتم كيف يعجب الغرباء بأبواب مدينتنا بعد إصلاحها. وبالبرج الناصع البياض، وبالكنيسة بعد تجديدها؟أليس الكل معجبًا بطرقنا المرصوفة، وبالقنوات ذات المياه الجارية المغطاة. المنتشرة في كل ناحية. وهي على كثرة فائدتها مصدر للسلامة والأمن، وبواسطتها أستطعنا

---

(1) يجب تنبه القارئ إلى أن المانيا في ذلك الزمن كانت مقسمة عدة وحات مستقلة. تتركب أحيانًا من مدينة صغيرة وقطعة من الأرض تحيط بها.

مكافحة النيران عند بدء إشتعالها.

فحدثوني بالله، ألم تتم هذه الأعمال كلها منذ ذلك الحريق المروع؟ ولقد كنت في مجلس المدينة ست مرات، متوليًا رآسة الأعمال العامة، قمت بما جعلني جديرًا بأن يهتف لي أهل المدينة وأن يبذلوالي جزيل شكرهم. فلقد كنت أقترح الخطط، ثم أمضى في تنفيذها، بل وفي تنفيذ ما أقترحه سواي من أهل المدينة ثم عجزوا عن إكماله وإتمامه. وأخيرًا دب الحماس في أعضاء المجلس جميعًا، فجعل كل منهم يجد ويدأب. حتى لقد أصبح في حكم المقرر إنشاء ذلك الجسر العظيم الذي يصل المدينة بالطريق الجديد.

لكني أخشى كثيرًا أن الشباب لن يتخذنا مثالًا وقدوة.فهم إما فريق لا يفكر في غير السرور والملذات، ولا يعني بغير الأنيق من اللباس، والتافه من الأمور. وفريق آخر يقبع في عقر داره، ويختفي وراء موقد النار مدى الحياة.. وإني لأخشى أن هرمن سيبقى أبدًا من هذا الطراز.

فقالت الأم وهي تلك المرأة الصالحة العاقلة: إنك أيها الوالد ما كنت يومًا منصفًا لأبنك. وإنك بهذا تجعل من العسير أن يتحقق رجاؤك فيه.

وليس في وسعنا أن نكون أبناءنا وفقًا لأهوائنا. أليسوا هبة وهبنا الله إياها؟ فما علينا إلا أن نحرص عليهم، ونبذل لهم كل حب ورعاية، ونحسن تربيتهم بقدر إستطاعتنا، وبعد ذلك نتركهم وشأنهم. فإن لكل منهم مواهب، يستخدمها وينتفع بها. غير مواهب الآخرين. ولن يصيب الواحد منهم صلاحًا أو سعادة في الحياة إلا بما يقتضيه مشربه ونزعته.

وإني لن أسمح لأحد أن يضع من قدر ولدي هرمن. وأنا أعلم علم اليقين أنه حقيق وجدير بتلك الثروة التي ستؤول يومًا إليه.. فهو رب منزل قل أن يوجد له نظير. ومثال يقتدي به أهل الحضر وأهل الريف على السواء. وأرى من الآن، وأنا واثقة مما أرى، أنه لن يكون الأخير في مجلس المدينة ودار ندوتها. لكنك بهذا اللوم والتقريع، في كل لحظة وآونة، تكدر صفاءه، وتجعل صدره ضيقًا حرجًا كما فعلت الساعة.

وبعد أن قالت هذه الكلمات، غادرت الحجرة مسرعة،تبحث عن نجلها، لعلها إن لقيته أن تأخذ في ملاطفته ومؤانسته وأن تعيد السرور إلى قلبه. وهو بهذا كله جدير.

ولم تكد الأم تخرج حتى أبتسم الوالد، وقال:حقًا إن النساء لجنس غريب؛ وما هن في الحقيقة إلا كالأطفال، تسير كل واحدة منهن حسب ما يمليه هواها، وعلينا نحن أن نسترضيهن بالملاطفة حينًا، وبالثناء عليهن حينًا.

غير أني مازلت مصرًا على صحة ذلك المثل الذي علمنا القدماء إياه وهو: من لم يسر إلى الأمام، رجع القهقري.

فقال جارهم الصيدلي متمهلًا، كأنما يزن الكلام وزنًا[1]: أوافقك كل الموافقة على ما قلت.وأنا نفسي أتلمس الأحسن وأنشده دائمًا؛ على شرط ألا يكون غالي الثمن، مع جودته وجدته. وإلا فماذا يجدي على

---

(1)جعل المؤلف من هذا الصيدلي مثلًا للرجل الذي يقول أتفه الأقوال بشكل من يتكلم كلامًا ذا أهمية كبرى. ولهذا هويزن كلماته وزنًا.

الإنسان دأبه وجده في إصلاح ما لديه، ظاهرًا وباطنًا، إذا لم يكن كيسه مفعمًا بالمال؟ أن ساكن الحضر محدودة موارده جدًا، فهو قد يرى الشيء الصالح فلا تجرؤ نفسه أن تشتهيه، وما دام كيسه قليل النقود وحاجاته كثيرة العدد، فلا عجب إذا رأيته أبدًا عاجزًا، مكتوف اليدين.

وأنا نفسي أود أن أقوم بأعمال شتى، لكن من ذا الذي لا يحجم ولا يتردد أمام النفقات الباهظة، خصوصًا في هذه الأزمنة الخطيرة؟ فمنذ عهد بعيد أفكر في تنميق منزلي وتجميله طبقًا للشرب الحديث؛ بحيث يصبح لنوافذه الفسيحة زجاج كبير لامع براق. ولكن من منا يستطيع أن يقتدي بذلك التاجر الذي يعرف على رغم كثرة أمواله. كف يحصل على أحسن الأشياء بأبخس الأثمان؟ أنظر إلى داره الجديدة التي بناها قبالتنا! وما أجمل أعمدتها اللولبية البيضاء ومن ورائها الحديقة الخضراء. وأنظر إلى زجاج النوافذ وحجمه الكبير! وكيف يلمع كأنه مرآة وضيئة. حتى لقد تلاشت بجانبه سائر المنازل في هذا الميدان.. ومع ذلك ألم يكن بيتي (صيدلية الملاك) وبيتك أنت (الأسد الذهبي) أحسن بيوت هذا الميدان جميعًا بعد الحريق بزمن وجيز؟ ولقد كانت لحديقتي شهرة في سائر الإقليم. وما من مسافر إلا وقف لديها لحظة ينظر من خلال السياج إلى التمثال الحجري للشحاذين، والصورة الملونة للأقزام. ولكم دعوت الأضياف إلى تناول القهوة في الغار المشيد بالحديقة – وهو الآن قد أخذ يتداعى ويعلوه الغبار – فكانوا جميعًا يعجبون أشد الإعجاب بذلك الضياء المتعدد الألوان المنبعث من القواقعالمنضدة أحسن تنضيد.. وكان الخبير بهذه الأشياء ينظر حائرًا إلى لمعان الرصاص والمرجان المصطنع. وكذلك كانوا يعجبون بصورة

في الصالون تمثل سيدات وسادة يتنزهون في الحديقة، لابسين أبهى الثياب، ويتناولون الأزهار بأيديهم أو يمسكونها بأطراف الأصابع.

أما الآن فمن ذا الذي يلقى مجردالنظرة على شيء من هذا؟ إني أنا نفسي – لشدة غيظى – فلما أخرج إلى الحديقة الآن. وقد أصبح من الواجب تغيير كل شيء، لكي يصبح وفاقًا للذوق الحديث كما يزعمون. ويجب أن تطلى الأخشاب جميعًا باللون الأبيض وكذا المقاعد الخشبية. ويجب أن يكون كل شيء بسيطًا خاليًا من كل حلية. فلا ينبغي أن تكون هنالك أخشاب محفورة أو مدهبة. والأخشاب الأجنبية هي أعز أنواع الخشب وأغلاها.

ولهذا تراني على شدة ولعي بإقتناء الجديد ورغبتي في مسايرة الزمن، بأن أغير وأبدل أثاث المنزل من آن لآن؛ أجدالناس جميعًا يحجمون حتى عن تبديل أقل الأشياء، وأصبح العمال بحيث لا يستطيع أحد دفع أجورهم.

ولقد خطر لي حديثًا أن أكلف من يقوم بتذهيب الملاك ميكائيل، وهو كما تعلم شعار الصيدلية، وكذا التنين المخيف الملتف حول رجليه. ولكني أضطررت، لارتفاع الثمن، أن أتركه ليكتسب اللون الأسود على مضي السنين.

النشيد الرابع

يوتربا EUTERPE

(آلهة الشعر الغنائي)

الأم وأبنها

وبينما الرجال يتجاذبون أطراف الحديث؛ ويلتمسون في الحديث ما أستطاعوا من لهو وتسلية، كانت الأم منهمكة في البحث عن فتاها. فتفقدته أولًا خارج البيت على المقعد الحجري الذي أعتاد الجلوس عليه. فلما لم تجده هناك أنطلقتإلى الإصطبل لعله قد ذهب هناك: إلى تلك الصافنات الجياد، التي أشتراها وهي أمهار، وأبى أن يقوم على رعايتها أو يعني بها أحد سواه.

أنبأها الخادم أن مولاه أنطلق إلى الحديقة، فجعلت تجتاز الفناءين على عجل، تاركة وراءها الإصطبل، والإجراناالمحكمة البناء. ودخلت الحديقة: فإذا هي فسيحة الأرجاء. قد أمتدتإلى سور المدينة؛ وقد أقر عينها ما رأته فيها من نماءوإزدهار. فجعلت تقيم المتداعي من الدعائم التي تستند عليها غصون التفاح، أو فروع الكمثري، المجللة بالثمار. وتنتزع الحشرات والديدان عن الكرنب الذي أمعن في النمو. كانت تعمل هذا كله وهي سائرة في طريقها، لأن المرأة النشيطة لا تخطو خطوة خلوًا من

النفع والفائدة.

وأخيرًا وصلت الأم إلى نهاية الحديقة. حيث الجوسق يكسوه الياسمين. لكنها لم تجد للفتى أثرًا لاهنالك ولا في سائر الحديقة. بيد أنها لاحظت أن باب الجوسق منفتح قليلًا وهو باب صغير قد ركب في سور المدينة. وهذا دليل الحظوة والرعاية التي نالها أحد الأجداد إذ كان للمدينة عمدة من خيار العمد.

خرجت الأم من ذلك الممر إلى ما وراء السور. وهنالك أبصرت الكروم يحيط بها سياج منين الصنع؛ وقد غرست على منحدرات تسطع فيها أشعة الشمس. وقد أمتدت عروشها صاعدة على تلك المنحدرات.

صعدت الأم وسط هذه العرائش، وقد راقها مارأته من وفرة العناقيد. حتى ما تكاد الأوراق أن تخفيها. وكان بين العرش طريق مظلل يرتقي إلى أعلى الكثيب. ويصعد إليه بدرجات غير منتظمة من الحجر. ومن العرش كانت تتدلى عناقيد العنب الرازقي والمسكاتي، وإلى جانبها عنب بنفسجي اللون، قد أمتاز بحباته الضخمة.

هذه الكروم جميعًا قد غرست من قبل بجد وعناية، لكي تتحلى بثمارها مائدة الضيوف بالفندق. وعلى الكثيب، غير هذه العرش، شجرات مبعثرة حباتها أصغر حجمًا، ومنها تعصر تلك الصبهاء الغالية.

جعلت الأم تصعد الكثيب، وقلبها يحس السرور سلفًالإقتراب الخريف، ولما يؤذن به من أعياد يحتفل فيها أهل الناحية. فيجتنون أطيب

العناقيد، ثم يدوسونها بأرجلهم[1] ويجمعون العصير في الخوابي. وفي المساء – تكريمًا للغلة الوافرة– ترى الألعاب النارية وهي تملأ الفضاء بأضوائها وضوضائها.

لم تلبث الأم أن أزداد قلقها، حين نادت ولدها مثنى وثلاث.فلم يجبها غير رجع الصدى، تردده أبراج المدينة.. ولم يكن من عادتها أن تفتش عنه، ولا من دأبه أن يذهب بعيدًا. وما كان له أن يذهب دون أن ينبئها بذهابه كي يهدأ روعها، ويطمئن قلبها.

على أنها لم تزل ترجو أن تلقاه في هذا الطريق، لأنها رأت أن بابي الكرمة: الأسفل والأعلى، كلاهما مفتوح. أجتازت البابين إلى الحقول التي يظهر الكثيب، وهي أيضًا من ممتلكات الأسرة. وقد سرها منظر البر، قدمالت سنابله موقرة بما تحمل من حب ذهبي.

جعلت تمشي وسط المزرعة في ممر ضيق. ووجهتها دوحة الكمثرى القائمة على ربوة تلي الكثيب. وهي الحد الذي تنتهي إليه ممتلكات الأسرة.

وهذه الدوحة علم بارز، تلمحه العيون من سائر أطراف الإقليم، ولثمارها شهرة واسعة؛ ولا يعرف أحد من الذي غرسها.. وكثيرًا ما يأوي إليها الحاصدون ورعاة الأبقار، فيجلسون في ظلها ساعة الظهيرة، ولهذا كان تحتها مقاعد منالحجر الخشن والعشب اليابس.

---

(١)عصر الخمر بواسطة الأرجل (بعد غسلها بالطبع) كان شائعًا: في ذلك الوقت. كما أنه ذائع في مصر لإستخراج الزيت من بعض البذور مثل السمسم وغيره.

ولم يكذب ظن الأم، فلقد كان هرمن هناك حقًا، كان جالسًا في ظل الشجرة مغتمدًا ذراعيه. وكأنما ينظر إلى الجبال، موليًا ظهره إلى الناحية القادمة منها أمه. فتقدمت هذه نحوه في هدوء ورفق، ولمست كتفه بيدها. فألتفت إليها فجأة، فرأت الدمع يترقرق من عينيه.

فقال لها وهو المأخوذ: أماه إنك أتيتني على غرة! وجعل يكفكف دمعه على عجل.

فقالت الأم، وأحزنها مارأته: ماهذا، أتبكي يابني؟ إنيأنكر هذا منك، وما عهدتك يومًا بالذي تدمع عيناه! قل لي ما الذي أنقبض له صدرك وألمت له نفسك، ودفع بك إلى الإنفراد في ظل هذه الشجرة؟ ولم يكفك هذا حتى جعلت تذرف الدمع؟

فتمالك الفتى نفسه وقال: إن الذين لا تأخذهم عاطفة رحمة على أولئك الشريدين، هم أناس صدورهم من نحاس، وليس بين جوانحهم قلوب. وقليل العقل جدًا من لا يعني في هذا الزمن العصيب بسعادته وسعادة وطنه.. ولقد ألمتنفسي اليوم لما سمعته بأذني وما أبصرته بعيني، ونظرت الآن إلى ما حولي: فرأيت هذه المزارع المترامية الأطراف. تكسر الكثبان والسهوب، المحيطة بنا من كل صوب: ورأيت السنابل الذهبية، وقد مالت تنتظر الحصاد. والفاكهة اليافعة وتوشك أن تكتظ بها خزائننا.. ولكن ماذا يجدي هذا كله والعدو على أبوابنا؟

ولئن قيل إن نهر الرين بتياره المتدفق يحمينا ويعصمنا، فأي نهر وأي جبل يستطيع أن يقينا بأس ذلك الشعب المخيف، الذي يزحف علينا كأنه

الريح العاصف ذات البروق والرعود. وهاهم أولاء قد أهابوا برجالهم شبانًا وشيبًا، وأحتشدوا زمرة في إثر زمرة، وفوجًا وراء فوج. وأخذوا يزحفون علينا بعنف؛ وهم في عديدهم الهائل لا يرهبون الردى، ولا يفل لهم عزم. ثم بعد هذا نرى من الألمان من يجرؤ على البقاء في داره، كأنما سولت له نفسه أن سوف يفلت مما يتهدد الناس جميعًا من الويل والثبور.

فيا أيها الأم العزيزة، إنني اليوم كدت أتميز من الغيظ، إذ ذكرت أنهم قرروا إعفائي، حينما أختاروا المقاتلين منأهل المدينة. لست أنكر أنني الأبن الوحيد، وأن بيتنا كبير، وأعمالنا ذات شأن وخطر. ولكن أماكان أجمل وأجدر أن أقف هناك على الحدود مدافعًا ومانعًا، من أن أبقى هنا أنتظر الشقاء والإستعباد؟ أجل وبهذا تحدثني نفسي. وإني لأحس في أعماق قلبي بأسًا وعزمًا يدفعانني لأن أحيا للوطن وأموت للوطن، وأكون للآخرين قدوة ومثلاً.

ولعمري لو أن شباب الألمان بكامل قوتهم أحتشدوا على الحدود، مجمعين على ألا يهنوا أمام العدو؛ إذن لما أستطاع أن يطأ هذا الثري العزيز بأقدامه، وأن يلتهم ثماره اليافعة أمام أعيننا، وأن يتحكم في رجالنا، وأن يسلبنا نساءنا وبناتنا.

أنظري يا أماه! إني قد قر رأيي، وصح عزمي على أن أبادر الساعة، بل هذه اللحظة، إلى إمضاء ما أراه عدلًاوصوابًا.. ولا خير في تفكير طويل، قد لا يهدى إلى الرشد دائمًا. وما من داع إلى أن أعود إلى دارنا؛ بل أنطلق من هنا إلى المدينة رأسًا، فأقدم إلى الجند هذه الذراع وهذا

القلب من أجل خدمة الوطن.

فهل يصر الوالد بعد هذا على أني لست ممن يجيش بصدرهم طبع كريم، أو يتطلعون بأبصارهم إلى المعالي؟

سالت عبرات الأم الطاهرة – وهي سرعان ما تدمع عيناها – وأجابته بعقل وروية: أي طارئيابني قد بدل من طبعك ومن خلقك، فأصبحت لا تخاطب أمك بتلك الصراحة التي عودتها إياها بالأمس، وقبل الأمس. وأمسيت وما تحدثها بحقيقة ماتضمره وما تريده؟ لو سمع قولك الآن ثالث لخدعته عبارتك وحديثك الخطير؛ ولأثني عليك أطيب الثناء، وحكم بأن عزمك هذا من أشرف الأمور وأجلها.

أما أنا فأني ألومك، لأني أدرى بك وأعرف... إنك تكتم في قلبك سرًا، وتخفى خلاف الذي أبديت.. وأنا أعلم أنك لست ممن يستهويهم دق الطبول وصوت الأبواق، ولا ممن يلذ لهم أن يظهروا أمام الفتيات في ثوب الجندية البراق. وبرغم ما أنت عليه من شجاعة وإقدام، فإن مهنتك التي تهواها هي أن ترعى المنزل، وتعنى بالمزرعة. إذن فلتجبني إجابة صريحة: ما الذي دفعك إلى ما عزمت عليه؟

فأجاب الفتى: لقد أخطأ ظنك يا أماه! فإن المرء لا يبقعلى حال مدى الأيام. والفتى ينضب فيغدو رجلًا. وأولى له أن ينضج في هدوء وسكون ثم ينهض بجليل الأعمال، من أن يكون نضوجه وسط ضوضاء حياة مضطربة جامحة.طالما كانت نكبة على الفتيان.. وإني برغم ما كنت عليه أبدًا من الهدوء، قد نما في صدري قلب حساس يبغض الظلم والأذى.

وأصبحت قادرًا على التفريق بين ما في هذه الحياة الدنيا من أمور ومذاهب. ولقد كان العمل في المزرعة سببًا في أن أشتد ساعداي ورجلاي..

إن هذا الذي أزعمه صحيح كله، وفي وسعي إثباته وتوكيده.. غير أني لست أنكر أنك أصبت أيتها الأم! في عتاب ولومي. فلقد أخذت على كلمات قلتها الآن، فيها شائبة كذب، رفها شائبة رياء. وإني أعترف لك بأني لست أبغي هجر الديار خوفًا من الخطر المحدق، أو من أجل فكرة سامية تدفعني لأن أكون للوطن عوناً، وعلى الأعداء حربًا.. هذه عبارات فهت بها لعليأستر بها عنك ما بقلبي من وجد يكاد أن يشقه ويمزقه. فذريني الآن أمضى ما عزمت عليه.فلئن أصبحت وما يجيش بصدري سوى آمال ضائعة، فأجدر بهذه الحياة أن تذهب في إثرها.

وإني لأعلم علم اليقين. أن الأفراد إنما يسيرون إلى الدمار من غير جدوى. إذا لم يستشعروا المنفعة العامة فيما يأتون من الأعمال.

فقالت الأم العاقلة: أمض في حديثك؛ وقص على كل شيء؛ من جليل أو حقير!.. إن الرجال فيهم عنف وشدة، فلا يلتمسون من الوسائل إلا ما فيه غلو وإفراط. وبرغم شدتهم وعنفهم فإنهم كثيرًا ما تخرجهم العقبات التي تعترضهم عن الجادة القويمة. أما المرأة فماهرة في إلتماس أواسط الأمور. وتعرف كيف تسلك أحيانًا طريقًا بعيدة توصلها إلى غايتها ومقصدها.

فقص على الآن كل شيء. ولتحدثني بما أثار أشجانك بمثل هذا

العنف الذي مارأيته منك يومًا. وبما أهاج الدم في عروقك، وأسال الدمع من عينيك، على الرغم منك.

هنالك خان الفتى تجلده، وغلبه الحزن والشجن. فجعل يبكي وينتحب، مستندًا إلى صدر أمه: وقال بصوت فيه حزنورقة: إن الذي قاله اليوم أبي قد جرحني جرحًا داميًا. ما أظنني أستحق هذا منه اليوم، وما أظنني كنت يومًا لمثله مستحقًا. فلقد كنت وليس أحب إلى نفسي من تمجيد أبوي وإعزازهما. وما كنت أرى في الحياة من هو أكثر عقلا وأحكم رأيًا من هذين الذين ربياني صغيرًا. ثم جدًا في إرشاديوتأديبي طوال عهد الطفولة المظلم.

ولطالما كنت أحمل الإساءة والأذي من أترابي. إذ يقابلون حركاتي البريئة بالحقد والموجدة؛ وقلماكنت آبه لهم. أو أقابل منهم الأذى بمثله.. بيد أني إذا رأيتهم يهزأون بأبيحين يخرج من الكنيسة تكسوه الهيبة والوقار، أو يسخرون من الرباط المعقود حول قبعته، أو الأزهار المطرزة على جبته التي كان يلبسها في جلال وأبهة – وهي الجبة التي أهديت اليوم – فهنالك كان يأخذ الغضب مني مأخذه. فأوسعهم لكمًا وضربًا ولكزًا، لا أعرف ولا أبالي أين تقع ضرباتي منهم. ثم ينصرفون وهم يعولون وينتحبون، والدم يجرى من أنوفهم مدرارًا، ولا يكاد الواحد منهم أن ينجو من وابل الضرب واللطم إلا بشق النفس.

بعد ذلك جعلت أكبر وتزداد سني، فيزداد ما أكابده من والدي وما أعاني. إذ كان يجعلني غرضًا للسهام التي يريد أن يرمي بها الغير، فكلما

لقي في مجلس المدينة عنتًا أحفظه، كنت أنا الذي أدفع الثمن لمالاقاه من زملائه من نزاع ودسائس. حتى لقد كنت أنت تأسين لي وترثين لما أعاني.

ولقد كنت محتملًا لهذا كله، مستشعرًا أبدًا أن للآباء علينا حرمة وفضلًا، إذ ليس همهم من الحياة إلا أن يكثروا الجمع والإقتناء من أجلنا، ولقد يزهدون في كثير من متاع هذه الحياة كييدخروه لنا معشر الأبناء.. لكنني - ويالأسف – لا أرى السعادة كل السعادة في هذا الجمع في الحاضر لكي ننعم به في المستقبل.. أجل لست أرى السعادة في تكديس المال: كدسًا على كدس، والأرض: فدانًا إلى فدان، مهما حسنت شكلًا ومنظرًا.. لأن الوالد في أثناء هذا كله تتقدم به السن، والأبناء يكبرون. وليس لهم من نعيم يومهم نصيب، والمستقبل أبدًا يهمهم وينصبهم.

أنظري إلى ما يحيط بنا من هذه المزارع الوافرة. وإلى هذه الكروم والحدائق، من ورائها الأجرانوالإصطبلات.وكلها مرصوصة منسقة، المتاع يلي المتاع. فما أبدعها جميعًا وما أكثر خيرها!

ثمأنظري بعد هذا إلى طرف الدار، وإلى حجرتي الملتصقة بالسقف، والتي تبدو لنا نافذتها من هنا! تعود الآن إلى خاطري ذكرى ليال قضيتها هناك، أنتظر طلوع القمر في الليل، وبزوغ الشمس في الصباح، مكتفيًا بساعات قلائل من النوم الصحيح العميق.. كنت أنظر حولي فأحس الوحدة، ولا أرى في الحجرات أو في فناء الدار، أو في الحديقة المزهرة والحقول المنبسطة فوق الكثبان. لا أجد في هذا كله إلا خلاء مجدبًا قفرًا. وأظنني أصبحت تعوزني الحليلة!

فردت الأم بتعقل وفهم وقالت: إن والدك ووالدتك لأشد رغبة منك في أن تتخذ لك شريكه في الحياة، فتصبح أيامك ولياليك ناعمة راضية. ولطالما حاولنا إقناعك بأن تختار لك فتاة، بل لقد دفعناك إلى ذلك دفعًا. بيد أني لست أجهل أنه إذا لم تأذن الساعة، أو إذا لم تظهر الفتاة المنشودة، فقد يلبث الإختيار معلقًا زمنًا طويلًا. فيسوف المرء ويؤجل، خشية أن يسيءالإختيار.

لكن قلبييحدثني بأنك قد أخترت وقضي الأمر. وكأني أرى قلبك قد شغف، فبات أكثر إحساسًا مما عهدناه. إذن أصدقني الخبر الآن. فإن نفسي قد أحست الحقيقة منذ حين. إن التي أخترتها هي تلك الفتاة الشريدة.

فأجاب الفتي بحماس: لقد أصبت يا أماه! إنها هي – ولئن لم يتح لي أن أصطحبها اليوم إلى دارنا عروسًا وزوجًا.فإنها ستمضي في طريقها، وقد تختفي فلا أراها بعد اليوم.بسبب هذه الحرب الضروس، وما هم فيه من حل وترحاله وأسفار. ولئن فقدتها، فستغدو هباء كل هذه الثروة.وهباء ماتأتي به السنون المقبلة من خيرات، والدار التي أسكن والحديقة الغناء سوف تنبو عنهما نفسي. بل وأنت أيها الأم العزيزة لن تجدي إلى تسليتيسبيلًا. لأن الحب، حين يوثق رباطه، يحل عقدة كل رباط آخر. وليست البنت وحدها هي التي تهجر والديها من أجل الرجل الذي أختارتهوأرتضته.بل كذلك الفتى ينسى أباه وأمه إذ يرى الفتاة التي أختصها بالحب تتوارى عن عينيه.

فدعيني الآن أنطلق إلى حيث يقذف بي اليأس. فقدقال والدي في هذا الأمر كلمته القاطعة، وهيهات أن تكون داره بعد اليوم داري، مادام يأبى أن تدخلها الفتاة التي أهوى من بين سائر النساء.

فأجابته الأم على الفور: ما أشبه الرجلين المتخاصمين بالصخرة تواجه الصخرة! كلاهما قد أمتلأ جمودًا وكبرًا، ولا يريد أن يقترب من الآخر قيد أنملة. أو أن يحرك لسانه بكلمة طيبة تلقاء الآخر. لكني على رغم هذا لايزال في صدري بارق أمل بأن أباك سيزوجك منها مادامت على شيء كثير من الأمانة والصلاح، برغم ضيق ذات يدها، وبرغم كل الذي قاله اليوم من أنه يبغض مصاهرة الفقراء. فإنه كثيرًا مايقول في حدته المألوفة عبارات لا ينفذ منها حرفًا. بل كثيرًا مايقبل الشيء الذي كان يرفضه ويأباه.وكل ماهنالك أنه يحب أن تقال له كلمة طيبة، وهو لعمري جدير بهذا لأنه السيد الوالد..

ونحن جميعًا نعلم أن غضبه هذا، الذي يثور من بعد المائدة، ليس بشيء ذي خطر، فهو يتكلم بشدة وبعنف، وقد آثار النبيذ حفيظته، وأهاج كل قواه، فبات لايحس ولا يسمعغير صوت نفسه. ويأبى الإنصات إلى مايقوله سواه. لكن الآن قد أقترب المساء، وقد دار بينه وبين صديقيه أحاديث شتى: ولا تكاد تذهب عنه حدة الخمر حتى يعود أكثرهدوءًا وحلمًا. ويحس أثر الظلم الذي أنزله بغيره.

فهلم بنا الآن، ولنحاول أن نعمل الذي نستطيعه. دون أن نضيع لحظة: وما ينجح في الحياة إلا الأقدام والمغامرة. ونحن في حاجة إلى

مساعدة الصديقين اللذين يجالسانه الآن. وسيكون لنا القس الكريم خير نصير.

ثم نهضت الأم واقفة. وأنهضت أبنها من مقعده. فقام يمشي خلفها طائعًا. وساراكلاهما صامتين، ينعمان الفكر فيما ينويان أن يفعلاه.

النشيد الخامس

بوليهمنيا POLYHYMNIA

(آلهة الأناشيد الدينية)

رجل الدنيا[1]

كان الأصدقاء الثلاثة: القسيس والصيدلي وصاحب الفندق، جلوساً بعدُ، يتجاذبون أطراف الحديث، الذي لم يتغير موضوعه، وإن كانوا قد قلبوه على وجوهه جميعاً. وأخيرا قال القسيس الكريم الخصال: لست أبغيمعارضتكما فيما ذكرتما. بلإني مُقِر بأن الإنسان يجب أن ينشد الأحسن: ونحن نراه في الواقع يبتغي الأسمى من الأمور، أو على الأقل يبتغي الجديد. لكن يجبُألا تغلوا. فإن الطبيعة قد أضافت إلى هذا أن حببت إلى الإنسان الحرص على القديم، والتنعم بالشيء الذي ألفه وإعتاده زمناً طويلاً. وكل حال للمرء طيبة مادامت تستند على أساس من الطبيعة والعقل..

إن الإنسان كثيرة رغباته، لكن حاجاته قليلة، والعمر قصير المدى،

---

(١)عنوانهذاالنشيدرجلالدنيا:

أيالرجلالذيأتخذالدنياكلهاهوطناًلايفرقبينالأقطاروالأجناس،ولعلهذاإشارةللقسيس،وهناكمقابلةبينرجلالدنيا **Cosmopolite**،وبينللبورجوامساكنالمادية المذكورفضلسابق.

وحياة ابن الفناء محدودة. ولست بلائم يومًا ذلك الرجل، الذي أراه أبداً مندفعاًقلقاً. يحوم ويجول، ويركب البحار، ويجوب سائر الأقطار، في هياج دائم وحماس. ثم يفرح ويطرب إذ يرى المال يتراكم حوله وحول ذوي قرباه. ولكني أرى واجباً عليّ أيضاً أن أقدر كل التقدير ذلك الرجل من أهل المدينة، الذي تلقاه هادئاً ساكناً يتفقد بإهتمام الإرث الذي آل إليه عن أبيه، ويعني بالأرض وبزراعتها في كل موسم؛ ليس بالرجل الذي يبدل أرضه ودياره كل عام ، فهو يعلم أن الشجرة التي غرست حديثاً لن تسرع فترسل نحو السماء فروأة مجللة بالزهر ، وأن لابد له من الصبر والأناة ، وكذلك لابد له من فكر طاهر هادئرزين ، ومن فهم للأمور على حقيقتها ، فهو لا يُلقي في الأرض الخصبة إلا القليل من البذور ، ولا يقتني من الماشية إلا القليل، الذي يستطيع رعايته والعناية بنتاجه، فهو يقصر همه على ما يستطيع أن ينهض به.

وسعيدٌ، لعمري، ذلك الرجل الذي منحته الطبيعة. هذه الدقة في الخلُق،فإن مثله هو الذي يُغذينا جميعاً، ولنِعْم ساكن المدينة الصغيرة إذ يجمع بين حرفة أهل المدن وحرفة أهل الريف! فمثله لا يحس ذلك العبء الذي ينوه بكاهل الفلاح، ولا تزعجه الهموم التي تنغص عيش سكان المدينة، الكثيري المطامع، الذين يريدون أبداً – وعلى الأخص نساؤهم وبناتهم – أن يقتدوا بمن هم أكثر مالاً وأعلى مرتبة.

لهذا وجب عليك أن تحمد لفتاك مجهوده الهادئ، وأن تبارك الفتاة التي سيختارها زوجاً له يوماً ما.

وحين بلغ القسيس هذا الموضع من حديثه، دخلت الأم وإبنها، وقد قبضت على ذراعه، ووقفت به بين يدي أبيه وقالت: كم مرة أيها الوالد، كنا نفكر، ونحن نتحادث في ذلك اليوم السعيد.الذي لابد أن يأتي: يوم يختار هرمن عروسه فدخل السرور إلى قلبنا جميعاً ولقد كنا نتذاكر هذا الأمر غير مرة: وكنا نشير عليه أحياناً بهذي وأحياناً تلك؛ كدأب الوالدين إذ يتحادثان. والآن أقترب ذلك اليوم: وساقت المقادير إليه العروس وأرتها لعينيه. وقدعلقها قلبه، واستقر عليها رأيه.ألمندع له من قبل أن يختار التي يهواها ويرتاح إليها؟ والآن دنت الساعة، فلقد أحب وأختار وصحت عزيمته على بلوغ ما يريد.والتي اختارها هي تلك الغريبة التي لقيها اليوم، فأعطه إياها: وإلا فقد أقسم أن يبقى حياته أعزب.

وقال الفتى: أجل أهبنيإياها يا أبتي! إن قلبيإختار بصفاء وإيمان: وهي أجدر النساء بأن تكون إبنة لك.

صمت الوالد ولم ينبس بكلمة: فنهض القسيس قائماً وقال إن اللحظة السانحة هي وحدها التي تتحكم في حياة الإنسان وفي مصيره ومآله. وكل عزيمة للمرء، مهما طال فيها تفكيره وتدبيره،فأنها في النهاية وليدة اللحظة التي يقطع فيها برأي وسرعان ما يقطع الحكيم بالرأي الصواب.

وأنه لمن الخطر، عند الحكم والإختيار، أن يدخل المرء في الأمور ما ليس منها. فيحار اللب، ويضل الفكر.

إن هرمن فتى ثاقب النظر،وإني لأعرفه منذ الحداثة – ماكان يوماً من

طباعه –حتى وهو صبي – أن يمد يده إلى هذا وإلى ذاك. وما كان يطلب غير الذي يحتاجه، ثم يحتفظ به ويحرص عليه.

فلا تأخذكم الحيرة والدهشة الآن، لأن الحادث الذي كنتم ترجونه منذ عهد بعيد قد حدث فجأة حقيقة ليس للحادث، في الظاهر، ذلك الشكل الذي كنتم تتمنونه. لكن هذه الأماني نفسها كثيراً ما تحجب عنا الشيء الذي نتمناه، وإنما تنزل الهبات علينا من السماء في ثوبها هي، وفي شكلها فلا تنكروا هذه الفتاة التي تحرك لها لأول مرة قلب ولدكم العزيز وهو ذلك الفتى الطاهر العاقل.

وأسعد بذلك الرجل، الذي تمد إليه حبيبته الأولى يدها، فلا ينقلب حبه شجناً يضويه ويضنيه. ولعمري إني لأنظر إليه الآن، فأدرك أن حظه قد تقرر إن الحب الصحيح سرعان ما يستحيل به الشاب رجلاًرشيداً، وإني لألمح في وجهه العزم الذي لا ينثني عما يروم. ولئن أبيت عليه هذا قد قضيت عليه بأن يلبث بقية الحياة – وفيها أبهى سنى العمر – رهين الحزن والكآبة.

لم يكد القسيس أن ينتهي حتى تكلم الصيدلي، وكان طوال هذه الفترة يهم بالكلام.فلا يملك نفسه إلا بجهد وعناء. قال وهو يمعن في التفكير: رويدا! تعالوا نسلك هذه الكرة أيضًا طريقًا وسطًا. ولنتعجل مع التريث! ذاك كان شعار القيصر أغسطس نفسه.وأنا بودي أن أقوم بخدمة جيراني الأعزاء؛ وأن أستخدم في هذا كل مالدي من ذكاء قليل وفهمٍ ضئيل. والشباب على الأخص، في حاجة إلى من يرشده ويهديه. فدعوني

أنطلق الآن لكي أخبر الفتاة. وأسأل عنها المجتمع الذي يعرفها والذي تعيش فيه.ولست بالذي يسهل خداعه. وأعرِف كيف أنقذُ ما يقال لي، فأطرح عنه الزائف.

قال الفتى: نِعم ما تصنع أيها الجار! فإذهبو إستطلعما شئت من الأنباء! وَودَدتُ لو أنك إستصحبت معك مولانا القسيس، فإن رجلين جليلين مثلكما، هما من أعدل الشهود الذين لا يُتهمون. ويا أبتي ماهذه الفتاة من النساء اللواتي يَجُبنَ الآفاق في طلب المغامرات، لكي توقعن في حبائلهن أغرار الشباب، بالحيل والأكاذيب. كلا بل إنه هذه الحرب الضروس، التي مزقت العالم كل ممزق، ودكت المغانِيَ والمعاقل، أجل هذه الحرب الشعواء هي التي شردت هذه المسكينة. ألسنا اليوم نرى رأي العين كرام الرجال تحت كلكل البؤس والشقاء؟ ألسنا نرى الأمراء يلوذون بالهرب متنكرين، والملوك يعيشون في منفاهم طريدين؟وكذلك هي، وهيزين نساء العالمين، قد أخرجت من ديارها فتناست ما هي فيه من محنة وبلية، وجعلت تقوم بأَوَدِ الآخرين. فباتت قادرةً في ساعة العجز، معوانةً حين إنقطع كل عون.

لقد عم الأرض حزن هائل، وشقاء شامل؛ فهلا نشأ وسط هذه النقم نعمةٌ واحدة؟ هلا أتيح لو أن أضم عروسي، وهي تلك المرأة الأمينة، إلى صدري، فيكون لي وسط هذه الحروب سرور ونعيم، كما كان لكما من قبل وسط الحريق الهائل؟

هنالك لم يتمالك الوالد أن فتح فاه وقال: ليت شعري كيف انحلت

عقدة لسانك أيها الفتى، بعد أن كان قابعاً في فمك طوال هذه السنين، لا يتحرك إلا بجهد وعناء؟ فهل كُتِبَلي أن أُقاسيَ اليومَ ذلك الخطب الأليم الذي يتهدد الآباء طرًا: إذ تميل الأمُ ميلاً لإبنها، وتناصره وتؤازره في رغبته الملِحة وإرادته العنيفة؛ ثم ينحاز إليهما الجار بعد الجار: وقد تحالفوا جميعاً على الوالد.

وأراني أمسيت عاجزاً عن مقاومتكم جميعاً، وماذا تجدي المقاومة. فأني أرى مُنْذُ الساعة، روح العناد والدموع والبكاء.

فاذهبا إذن وإستطلعا الأنباء! فإن كانت تلك إرادة الله. فأحضرا الفتاة إلى الدار، وإلا فما على الفتي إلا التذرع بالنسيان والسلوان.

فصاح الفتي فرحاً طروباً: قبل غروب شمس هذا اليوم ستكون إبنتك بين يديك، أجل وسينعم عليك بفتاة هي أجل النساء، وخير ما يتمنى المرء حزماً وعقلاً. وإني لأرجو أنها هي أيضاً ستنعم بهذا وتسعد؛ بل وستشكر لى مدى الدهر أن قد وجدت فيكما أباً وأماًيتمنى مثلهما أحسن الأبناء وأعقلهم.

ولن أضيع الآن لحظة أخرى، بل أبادر فأعد المركبة والجوادين، ثم أحمل الصديقين إلى موضع الحبيبة، وأتركهماهناك وحدهما. ليدبرا الأمر بما أوتيا من عقل وحكمة. وإني أعدكم، بل أقسم لكم، أن أنزِلَ بعد هذا على حكمهما. وسأمتنع عن مقابلة الفتاة حتى تصبح ليخطباً.

قال هذا وخرج عجلاً. وجعل الآخرون يُجمعون أمرهم، ويتدبرون الطريق التي يسلكونها في معالجة ذلك الأمر الخطير.

ولم يُضع هرمن لحظة، بل انطلق إلى الأصطبل، حيث رأى الجوادين، واقفين هادئين، وما يلتهمان أحسن الشعير والدريس إلتهاماً؛ فألبس كلا منهما الشكيمة بين الفكين ثم أمر اللجم من الحلقات، وأحكم وضع السيور الطويلة العريضة، واقتاد الجوادين إلى فناء الدار، حيث هيأ الخادم المركبة وأعدها: فدفع الجوادين برفق إلى عريش المركبة.

وربطهما بإحكام إلى عمدها. وتبوأ مقعد السائق والسوط في يده. وسار بالمركبة إلى باب الدار؛ ولم يكد الصديقان أن يجلسا في مقعدهما الرحيب، حتى انطلقت تعدو بهم. ولم تك إلا لحظة حتى غادرت الطرق المرصوفة، وزايلت المدينة بأسوارها وأبراجها. وقد أخذ هرمن يسوقها تلقاء ذلك الجسر المعهود، وهو يركض بها ركضاً، دون ريثٍ ولا مهلٍ، سواء أكان يجري صاعداً أم منحدراً.

ولم يلبث أن لاح له برج القرية؛ ومن ورائه دورها المتفرقة تحيط بها الحدائق. عند ذلك أخذ يخفف من غلواء الخيل، ويهدئ من سرعتها.

وكان أمام القرية مرج يكسوه بساط من العشب الندى. تظلله شجرات من الزيزفون، شامخة جليلة نبتت في مواضعها هذه منذ زمن بعيد؛ ثبت أصلها في الثرى، وإمتدت إلى السماء فروعها. وكان هذا المرج ملعباً وملهى لأهل القرية ولما جاورها من البلاد. وكان في وسطه بئر قد حفرت بين الدوح في أرض منخفضة مطمئنة؛ تنزل إليها بدرج فتلقى مقاعد من الحجر مصفوفة حول ينبوع يتدفق منه الماء أبداً. رائقاً صافياً، وقد أحيط بسور صغير، بحيث يسهل الإستقاء من الحوض.

إستقر رأي هرمن على أن يربح الجوادين في ظل هذا الدوح، ففعل، وقال لصاحبيه: إنزلا الآن أيها الصديقان، وأذهبا كي تعلما أن هذه الفتاة جديرة باليد التي أمد إليها. أما أنا فما يداخلني في هذا ريب. ولن تنبئاني عنها بجديد. ولو كان الأمر كله بيدي لإنطلقت إلى القرية، وطلبت منها أن تتم سعادتي بكليمات قلائل تفوه بها.

أما أنتما فلن تجدا صعوبة في معرفتها من بين هذه الجماهير.فمن الصعب أن يكونلغيرها ذلك القوام العالي. ومع هذا فأني واصف لكما من ثيابها النقية ما قد يرشدكما إليها: لقد لبست قرطقا أحمر، قد نجم من تحته ثدياها. وأحاطت خصرها بنطاق اسود قد أحكمت شده وجعلت في لبة القميص ثنايا وطيات تحيط بجيدها المستدير كإطار بديع. وفي وجهها البيضاوى تلمحان الصراحة والهدوء.وشعرها مضفور ذوائب عديدة على أسلاك من الفضة. ومن تحت النطاق يتدلى مرطها الأزرق، ذو الثنايا العديدة ويكاد يمس منهاحينتمشي عقبيها المليحين.

لكن هنالك أمر أريد أن أسألكماإياه وألح عليكما في أن تجيبانيإليه: وهو ألا تخاطباالفتاة، ولا تدعاها تفهم ما تقصدان إليه. بل إكتفيا بسؤال الآخرين، وأنصتا للذي يقولون. ومتى إجتمع لديكما من الأنباء ما يهدئ روع الأب والأم فارجعا إلى لنتدبر ما نصنع بعد ذلك.

هذا هو الرأي الذي إرتأيت ونحن سائرون إلى هنا.

بعد أن ختم هرمن كلامه، إنطلق الصديقان إلى القرية، فإذا جماهير الناس قد إحتشدت في الحدائق والدور. وفي مخازن الغلال، ولهم عجيج

وضجيج، وقد إكتظت الطرق بالمركبات بحيث تلاصق العجلة العجلة. فمن رجال تطعم الماشية وهي تخور، والخيل وهي مربوطة إلى المركبات.ومن نساء منهمكات في تجفيف ماغسلن من الثياب على سياج المنازل أو على الأسوار أو في أي مكان. إلى أطفال يلهون باللعب في مياه الجداول.

شق الصديقان في جهد طريقاً وسط هذه المركبات. وجعلا ينظران يميناً ويساراً نظرات المستكشف المستطلع. لعل عيونهماأن تقع على الفتاة التي وصفت لهما.فلم يجدا لها شبيهاً بين من ألفياً من النساء. ولم يلبثا أن بلغا إلى موضع إشتد به الزحام، وقد إجتمع حول المركبات رجال يختصمون، من حولهم نساء يصحن ويعُولن. وأقبلشيخ وقور مسرعاًوإقترب من المتخاصمين فلم يكد يبدو ويشير إليهم إشارة الآمر حتى هدأت الضوضاء وسادالسكون. فصاح فيهم: أما كفانا ما حل بنا من الشقاء حتى صرنا عاجزين عن أن نتفاهم فيما بيننا،وأننتسامح، ونغض الطرف عما ما قد يرتكبه بعضنا من هفوات؟ لقد يكون أحدكم وسط السعادة، ضجرا متبرماً، سريع الغضب، لكن ألم يعلمكم وقع النوائب أن تكفوا عن النزاع والخصام؟ أولى لكم هنا. ونحن في ديار الغربة، أن يسع الواحد منكم أخاه، وأن تتقاسموا ما بأيديكم من رزق حتى تكونوا موضع العطف والرعاية.

فاه الشيخ بهذه الكلمات، وقد أنصت الجميع إليه. ثم أخذوا في إصلاح مركباتهم ودوابهم؛ وقد لانت عريكتهم، وهدأ ثائرهم.

وسمع القسيس كلام الشيخ؛ فتبين في وجهه ملامح القاضي العاقل

الرزين، فتقدم إليه وخاطبه فيجد قائلاً: إن الشعب في زمن الرخاء يعيش خلي البال. يتغذى مما تنتج أرض سخية واسعة. تخرج له الهبات الشهية على مدى الشهور والسنين. هنالك يجري كل شي وفق المرام، فيحس كل إمرىء في نفسه أنه فوق سائر الناس فضلاً وعقلاً. وما دامت الأمور تجري في مجراها فإن أحزم الناس وأذكاهم لا يلقى من التقدير أكثر مما يلقى سواه.

ولكن إذا نزل الشقاء، فإضطربت لوقعه سبل الحياة. وخربت المنازل والدور، وهلكت الحدائق والزروع. وسيق الرجال والنساء من مسكنهم الأمين، وقدف بهم إلى العراء. يختلف عليهم نهار قاسٍ وليل مخيف.فهنالك ينظر الناس من حولهم ليبحثوا عن أوفرهم عقلاً، وأعلاهم رأياً. الذي يستطيع أن يكلمهم، فلا تذهب كلماته أدراج الرياح.

قللي يا والدي! إنك من غير شك القاضي الذي يحكم بين هؤلاء الشريدين، ولهذا استطعت أن تهدئهم من غيرعناء أجل وإني أراك شبيهاً بأولئك القادة، في العصور القديمة، الذين كانوا يقودون رعاياهم الطريدة وسط الصحاري والقفار[1]، وكأني الآن إنما أخاطب يوشع أو موسى .

فأجاب القاضي وهو يلقي عليه نظرات حادة جادة: حقاً إن زماننا هذا ليشبه أغرب العصور التي حدثنا عنها التاريخ؛ سواء أكان تاريخ دين أم تأريخ دنيا. وإن الذي عاش من الأمس إلى اليوم فكأنما عاش عدة سنين، لكثرة ماتعاقب من الحادثات في هذه الفترة القصيرة. أماإذا حاولتُ

---

(١)أي مثل موسى عليه السلام حين قاد جموع بني إسرائيل في الصحراء ما بين مصر وفلسطين.

أن أذكر ما قبل ذاك بزمن قصير؛ فإني يُخيل لي أني بته أحمل على كاهلي عبئاً ثقيلاً من السنين. وأعجب أن لم تزل في بقية من القوة.

أجل إننا نستطيع حقاً أن نقارن بين أنفسنا وبين ذلك الشعب[1]، الذي لاحت له النار المقدسة في ساعة المحنة. فكذلك نحن قد شاهدنا الروح القدس وسط السحاب والنيران.

وكان القسيس يود أن يمضي في حديثه مع القاضي،ليستطلع أنباءه وأنباء قومه، فقال له رفيقه همساً: أمض في حديثك مع القاضي.وسقإليه حديث الفتاة؛ أما أنا فسأطوف بالمكان قليلاً. باحثاً عنها: ثم أعود إليك بعد أن أراها. فأشار القسيس موافقاً:وإنطلق الآخر بين الأسوار والحدائق، مستطلعاً باحثاً.

---

(1) شعب بني إسرائيل

النشيد السادس

كليو [1] ELIO

(آلهة التاريخ)

العصر

أخذ القسيس يسأل ذلك القاضي، الغريب الدار، عما ناسته الجماعة، وعن الزمن الذي قضته في هذا التشرد؛ فأجابه الآخر: إن آلامنا ليست بالشيء الحديث العهد، فقد شربنا صاب هذه السنين جميعاً، وكان أشد المصائب وقعاً علينا أن رأينا أبهى أمالنا وأحلاها تتهدم وتتحطم. ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن نفسه أخذت تسمو وتعلو، وأن صدره الحر أخذ يخفق خفقانًا أشد طهراً وصفاء، حينها أشرقت علينا الشمس الجديدة بأشعة براقة تسطع وتلمع. وحينما استهوي مسامعنا الكلام عن حقوق الإنسان، التي هي ملك للناس جميعاً، وعن الحرية التي تعلي النفس، وعن مبدأ المساواة المجيد.

هناك غداً كل يؤمل أن سيحيا حياته لنفسه[2] وكأنما تلك السلاسل

(1) في هذا الفصل إشارات إلى حوادث الثورة الفرنسية وإلى ما يثبت من الآمال في النفوس وما خيبت من الرجاء. ولهذا فإن اسم كليو إلهة التاريخ ملائم لهذا الفصل كل الملائمة.

(2) يحيا من أجل نفسه لا من أجل الملوك والقسس والنبلاء.

والأغلال، التي قيدت بها الأنانية والكسل[١] الكثير من الأمم، قد تكسرت أخيراً.. ألم تكن أنظار الشعوب جميعاً متجهة في تلك الأيام المفعمة بالحوادث إلى عاصمة العالم [٢]، التي إستحقت هذا اللقب العظيم في ذلك الوقت أكثر ما إستحقته في أي عصر آخر؟ ألم تكن أسماء أولئك الرجال، الذين كانوا أول من أذاعوا الرسالة ونشروها [٣] تضارع أسماء أجل الناس قدراً، ممن غدا لهم مكان بين النجوم الزاهرة؟ ثم ألم يكن أثر هذا كله أن بات كل إنسان يحس أن قد إرتقى: قلباً وروحاً ولساناً؟

ونحن الجيرة الأقربون[٤] كنا أول من أشتعلت نار الحماس في نفوسهم.. من بعد هذا دارت رحا القتال، وجعلت كتائب الفرنسيين تزحف على ديارنا. ولكن كان يبدو لنا أنهم مقبلون علينا كأصدقاء. وهكذا ألغيناهم. فلقد كانوا جميعاً ذوي نفوس عالية، فجعلوا يغرسون بيننا بهمة وعزيمة أشجار الحرية اليانعة. وأعلنوا أن كلاً له حقوقه المرعية وحكومته التي يرضى ويختار. وقد طرب الجميع سروراً، شباناً وكهولاً. وجعلت حلقات الرقص تدور من حول الأعلام الجديدة.. وهكذا تم لهؤلاء الفرنسيين اللبقينإكتساب قلوب الرجال بهمتهم وعزمتهم، وقلوب النساء برشاقتهم التيلا تقاوم، حتى لقد سهل علينا عبء الحرب على فداحته، لأن الأمل كان يسدل دون المستقبل ستوراً.فلا تقع أبصارنا إلا على السبل الجديدة التي بين أيدينا.

---

(١)الأنانية والكسل رمز للطبقات الحاكمة التي تسخر الشعب لخدمتها.

(٢) يريد باريس.

(٣) أمثال ميرابو ولافايت.

(٤)سكان الأقاليم الألمانية الملاصقه لفرنسا الواقعة غرب نهر الرين..

لقد تعلم أن الزمن الذي يقضيه العروس وخطبه، يغشيان المراقص والملاعب، وهما بإنتظار يوم العرس، من أسعد الأزمنة وأرغدها؛ لكن كان أسعد منه ألف مرة ذلك الزمن، الذي كان المرء يرى فيه أن أقصى ما كان يطمح إليه بصره، بات قريب المنال جداً. فهناك إنحلت عقده الألسنة، وأطلق الشيوخ والشبان للقول العنان، معبرين عن كل فكر سام وإحساس كريم[1].

لكن لم تلبث السماء أن غشيتها السحب، ونهض جنس فاسد ليقبض على زمام الحكم[2]، وهو عاجز عن أن يفعل الخير، فأخذ أفراده يذبح بعضهم بعضاً، ويستبدون بجيرانهم وإخوانهم. وبعثوا إلينا شرذمة من الأنانيين الجشعين. فأكب كبراؤهم على سلبنا كل شيء يستحق السلب، وأكب صغراؤهم على النهب، فلم يدعوا حقيراً أو تافهاً إلا إستولوا عليه. وما كان خوفهم إلا أن يسرفوا فلا يتركوا شيءإلى الغد.

فلم يمض زمن طويل حتى حل بالناس الشقاء، وفي كل يوم يشتد بنا الظلم ويزداد. وكانوا في عنفوان عزهم ونصرهم، فلم نجد من ينصت إلى إستغاثتنا. فإستولى الغيظ والغضبحتى على أعذب الناس روحاً. وأقسم الكل ليثأرن لما نزل بالبلاد من العار، وتلك الآمال التي خابت خيبة مضاعفة. وكان الجد حليف الألمان. فعاد الفرنسيون وإرتدوا متقهقرين. عند ذلك جعلنا ندرك حقيقة أهوال الحروب. فإن الجيش الظافر المنتصر

---

(١)إشارة إلى الذين تغنوا بمدح الثورة الفرنسية في أول عهدها من شعراء الألمان أمثال كلوبستك **Klopstock**

(٢)إشارة إلى جماعة البعاقبة

قد يبدي شيئاً من الكرم والمجاملة، أو على الأقل يتظاهر بذلك. فلا يريد أن يبطش بالذين ظفر بهم؛ بل يفضل أن يُبقى عليهم. وأن يستخدمهم كل يوم فينتفع بهم وبما ملكت أيديهم. أما المنهزم الهارب فلا يعرف شرعاً ولا عُرفاً، أقصى بغيته أن ينجو من الموت، فهو يلتهم كل ما يقع في يديه من غير تدبُّر ولا تبصُّر. وتطيش أحلامه ويدفعه اليأس إلى إرتكاب كل إثم، فلا يرى لشيء قدساً ولا حرمة. بل يسلب كل ما يقع تحت بصره. وتدفعه الشهوة الوحشية لأن ينقض على النساء، فتنقلب لذاته فظاعة وإجراماً ويبصر الموت ماثلاً أمامه في كل مكان، فيعيش لحظاته الأخيرة عيشة الوحوش الضارية. يسره أن يرى الدماء وأن يسمع أنين المعذبين.

هنالك جاشت برجالنا مراحل الغضب، وأرادوا أن يثأروا لما فقدوه وأن يدافعوا عما بقي. فحمل الجميع أسلحتهم وقد إزدادت شجاعتهم لما رأوه من سرعة فرار الهاربين، ومن وجوههم الشاحبة، ونظراتهم الفزعة، فجعل ناقوس الحرب يدق دقات متصلة لا تنقطع. ولم يهدئ من ثورة غضبهم خوف الأخطار التي هم مقبلون عليها. ففي لمحة الطرف إنقلبت آلات الزراعة إلى أداة حرب، فإذا الأمشاط والمناجل تقطر نجيعاً، وإذا الأعداء تتساقط أشلاؤهم بلا رأفة ولا رحمة. فأما الشجعان فكانوا يفتكون بهم جهاراً؛وأما الجبناء فيقتلون غيلة وخلسة. إن لأرجو ألا أرى بني الإنسان في مثل تلك الحال من الفوضى والإنحطاط مرة أخرى: ولمنظر الوحش الضاري خير من منظرهم.

فعلام إذن كل هذا الكلام عن الحرية كأنما الناس قادرون حقاً أن يحكموا أنفسهم؟ أنهم لا يكادون أن يُرخي لهم العنان، وتزول من أمامهم

العقبات. حتى تظهر فيهم الغرائز الدنيئة، ويختفي العدل والإنصاف في الزوايا والأركان.

فقال القسيس: أيها الرجل الجليل! لست يلائمك على إنكارك لبني الإنسان، بعد الذي عانيته من شرورهم، وماإرتكبوه من تدمير وتخريب. على أنك لو ألقيت نظرة أخرى على تلك الأيام الحزينة، فإنك واجد فيها من غير شك كثيراً من صالح الأمور؛ وكثيراً من جليل المشاعر، التي كانت كامنة في أعماق القلوب حتى أثارها وقع الخطوب. فإذا الشقاء الداهم والخطر المحدق يظهران الإنسان في صورة الملك، وإذا هو للآخرين بمثابة إله يرعاهم ويحميهم.

فتبسم الشيخ القاضي ضاحكاً وقال: إنك تذكرني تذكير الحكيم العاقل، كما يذكرون صاحب دار إشتعلت بها النيران فدمرتها، فيذكرونه بما فيها من الذهب والفضة، مما قد أذابته النار، ولبث مبعثراً بين أنقاض الدار. وفي الحق إنه لنزر يسير،لكنه على قلته ثمين. فيحفر المسكين باحثاًعنه، ويفرح لما قد يجده منه.وأنا كذلك أرجع بأفكاري مسروراً إلى تلك الأعمال الطيبة القليلة، التي لم تزل تعيها الذاكرة.

أجل لست منكر أني شاهدت الذين بينهم عداوة ينسون عداوتهم، كي يتعاونوا على إنقاذ المدينة من براثن الشقاء. ورأيت كيف تنهض الصداقة وحب الأبناء والآباء فتأتي بما قد يعد ضرباً من المحال. وأبصرت كيف ينقلب الشابرجلاً في لمحة الطرف، والشيخ اليَفن يحول فتى يافعاً. بل ورأيت الطفل يعود شاباً، وذلك الجنس الذي ألفنا أن ننعته بالضعف، قد

راح يبدي من البسالة والبأس ما يثير الإعجاب.

ولأقص عليك أولاًذلك العمل الجميل. الذي قامت به فتاة كريمة من خيرة العذاري: تخلفت هذه الفتاة في مزرعةكبيرة ومعها كثير من الفتيات. وقد ذهب الرجال جميعاًلمحاربة الأعداء. وبينما هن كذلك أغارت على المزرعة شرذمة من أراذل الناس. فنهبوا المزرعة ثم دخلوا على النساء الدار. فرأوا تلك الحسناء وقوامها المعتدل، والفتيات الأخريات وهن أحق بأن يدعين طفلات. فتملكتهم الشهوة الوحشية، وإندفعوا يريدون مهاجمة الصغيراتوهن يرتعدن فرقاً، والغادة الباسلة. لكنها لم تلبث أن إنتزعت من جانب أحدهم سيفاً وأجهزت عليه بضربه عنيفة فخرتحت قدميها مضرجاً بدمائه.. ثم لم تزل تضربهم ضربات الرجل القوي حتى كفت أخواتها شرهم؛ ولاذ اللصوص بالهرب، بعد أن جرحت منهم أربعة، بعد ذلك أغلقت الدار. وبقيت والسلاح في يدها تنتظر المدد.

حين سمع القسيس هذا الإطراء لتلك الفتاة، داخل قلبه الأمل من أجل صديقه. وهم بالسؤال عن مصيرها، وعما إذا كانت وسط هذا الجمع الغفير من اللاجئين. لكن في تلك اللحظة دخل الصيدلي مسرعاً، وجذب القسيس من ردائه وقال له همساً: قد عرفت الفتاة بعد لأي، من بين مئات من النساء. وهي كما وصفت لنا تماماً. فتعال معيكيتراها رأي العين. وليصحبنا هذا القاضي لنستطلع منه بقية أخبارها وإلتفتا فإذا القاضي قد إستدعاه قومه ليستفتوه في شئونهم ويهتدوا بهديه.

وبرغم هذا سار القسيس وراء الصيدلي حتى بلغا إلى فجوة في

السياج. فقال هذا وهو يشير بيده: أنظر هاهي الفتاة! سرعان ماعرفت كيف تلف المولود لفاً محكماً. وأنا أذكر تماماً القطن القديم، وغطاء الوسادة الأزرق. وهذا كله ما كان في حقبة هرمن، وقد أحسنت إذ أحكمت تحويل تلك الهدايا بسرعة إلى حالتها الجديدة.وهذه دلائل على الفتاة لا تقبل الشك. والصفات الأخرى واضحة أيضاً كل الوضوح. فهاك القرطق الأحمر، يستر صدراً قد نجم، وهاك النطاق الأسود قد أحكمت عقده حول خصرها. وقد جعلت في لبة القميص ثنايا وطيات بديعة تحيط بجيدها المستدير كإطار جميل. وفي وجهها البيضاوي تلمح الصراحة والهدوء وشعرها مضفور ضفائر عديدة على أسلاك من الفضة. وبرغم أنها جالسة فإننا نستطيع أن نتبين قدها الممشوق، وهو ذامر طها الأزرق، ذو الثنايا العديدة، يلفها من خصرها إلى عقبيها المستديرين.

هذه هي من غير شك، فتعال نستفسر عنها لنعلم هل هي ذات فضل وفضيلة وهل تحسن إدارة المنزل.

فجعل القسيس يختبر الفتاة بثاقب نظره. ثم قال: لعمري ليس بعجيب أن قد خلبت الفتى وسحرته. فإن عين الناقد الخبير لاتقع منها إلا على كل ما يعجب: سعيد من منحته الطبيعة الجمال الكامل. فبات محبوباً حيثما نزل، ولن يكون غريباً، مهما نبت به الدار. إذ يود الكل أن يقترب منه، وأن يلبث بقربه زمناً طويلاً. ولئن صاحب جمال الخَلقِ هذا حسن الخُلق، فإني أؤكد لك أن فتانا هرمن قد أصابعروساً ستملأ أيام حياته سعادةً ونعيماً. وستقف مخلصةً وفية إلى جانبه في كل حين. وأكبرظني أن هذا الجسم الكامل لا ينطوي إلا على روح طاهرة. وهذا الشباب القوي

سيفضي على مدى السنين إلى شيخوخة سعيدة.

فأجاب الصيدلي وهو يمعن في التفكير: رغم هذا كثيراً مايخدع المظهر. وأنالا أريد أن أثق بماقد يبدو للعين وكثيراً ماجربت صحة المثل القائل: لأتركن إلى صديقك الجديد كل الركون قبل أن تلعق وإياه صاعاً من الملح[١] فالزمن وحده كفيل أن يريك مبلغ صداقته، ومنزلتك عنده. دعنا إذن نستطلع أمرها من أناس صالحين يعرفونها ويستطيعون أن يقصوا علينا من سيرتها شيئاً.

فقال القسيس: وأنا أيضاً أفضل سلوك طريق الحذر، فنحن لانخطب الفتاة لنفسنا، وإختيار فتاة من أجل صديق أمر يتطلب التروي.

ثم إنطلقا نحو القاضي الهمام، وكان يسير تلقاءهم، منشغلاً بما لديه من الأعمال. فأقبل عليه القسيس العاقل ، وتكلم إليه محترساً.فقال: إنا رأينا في الحديقة المجاورة فتاة جالسة تحت شجرة تفاح، تصنع لطفل رضيع ثياباً من قطعة قطن قديمة لعلها أهديت إليها. وقد أعجبنا قوامها المعتدل وما يبدو عليها من الجرأة والبسالة؟ فحدثنا بما تعلمه عنها. وما سألناك إلا عن نية طيبة.

فتقدم القاضي قليلاً لينظر إلى الحديقة ثم قال: إني عرفتك أمر هذه الفتاة من قبل، حين قصصت عليك ذلك العمل المجيد الذي قامت به هذه العذراء بعينها. حين أستلت السيف ودافعت عن نفسها وعن صواحبها. أجل هذه هي.لا تكاد تلقي عليها نظرة حتى ترى ماوهبتها

---

(١)كناية عن تجربته في الشدة

الطبيعة من قوة. وهي على قوة جسمها طيبة القلب. فقد كانت تعول شيخاً هرماً من أقاربها، فلم تزل تعني بأمره حتى تخرمتهالمنون وقد أودى به حزنه على المدينة، ومانزل بها من البلاء وما يتهدد ثروته من الأخطار.

وكذلك قابلت بهدوء وجلد كارثة أخرى نزلت بها إذ فقدت خطيبها وهو فتى ذو إباء وشمم. أشتعلت في نفسه نار الحماسة من أجل المبادىء السامية الأولى، وأراد أن يجاهدبنفسه في سبيل الحرية. فذهب إلى باريس، ولم يلبث هناك طويلاً حتى قتل قتلة شنيعة. وهو يقاوم الإستبداد والدسائس كما كان يفعل في بلده.

فلما أتم القاضي حديثه شكره الصديقان.وإستأذناه في الإنصراف، وأخرج رجل الدين قطعة من الذهب (وقد أنفق منذ سويعات كل مابالكيس من قطع الفضة،إذ كان يعطي جماهير اللاجئين كلما مروا به) وقدمها إلى القاضي وقال: تفضل بتقسيم هذا الشيء الزهيد بين المحتاجين، وبارك الله في هذه الهبة.

فأبى القاضي أن يأخذها منه وقال: لقد إستطعنا أن ننجو بشيء من النقود وبكثير من الثياب والأمتعة، وأني لآمل أن نرجع إلى أوطاننا، قبل أن ينفد ما بأيدينا.

لكن القسيس أجابه وهو يضع القطعة في يده:أجدر بكل إنسان في هذا الزمن ألا يحجم عن العطاء، وأجدر بكل ألا يرد ما يقدم إليه عن سماحة. فما يدري أحد في يده اليوم شيء، إلى متى يبقى الذي بيده، وما يدري أحد اليومكميطول به السير والطواف في ديار الغربة، مقصى عن

المزارعوالحدائق التي كانت تؤويه وتغذيه

وقال الصيدلي، وكأنما أهمه الأمر:أجل لعمري ولو كان في جيبي نقود لمنحتك إياها: كبيرة وصغيرة؛ إذ لا شك عندي أن في عشيرتك من هم في حاجة إليها. ومع هذا فإنيلن أتركك تمضي من غير هبة أهبك إياها، حتى ترى نيتي الطيبة، ولو أن الصنيع دون النية بكثير.

ثم أخرج من جيبهكيساً من الجلد المطرز كان يحفظ فيه مالديه من التبغ، وجعل يفتحه بتدقيق وتمهل.فإذا فيه ما يكفيلملء (بيبات) قلائل. فقدمهإلى القاضي وهو يقول: إن الهبة لعمري قليلة فرد الآخر بأن المسافر يرحب أبداً بما يقدم إليه من جيد التبغ.

فأخذ الصيدلي يمدح تبغه ويثني عليه. لكن القسيس لم يدعهيطيل، بل أجتذبه وإبتعدا عن القاضي، وقال له: أسرع بنا فإن الفتى ينتظرنا في قلق، ويجب أن نسمعه النبأ السار بأسرع ما يمكن.

فإنطلقا مسرعين حتى إذا كانا على مقربة من الشاب، ألفياهمتكئاً على مركبته تحت شجرة زيزفون، وقد جعلت الخيلتضرب العشب بسنابكها. وهو ممسك بلجمها وممعن في التفكير. وكان ينظر أمامه بعيداً، فلم يحس قدوم الصديقين، حتناديآه حين إقتربا، وأشارا إليه إشارات سارة. وكان الصيدلي قد شرع يخاطبه من بعيد. ولكنها لم يلبثا أن وصلا إليه. وعند ذلك أمسك القسيس بيد الفتى وسبق زميله إلى الكلام فقال: سعد جدك أيها الفتى، إن عينك الطاهرة وقلبك الخالص قد أحسنا الإختبار. فلتسعد ولتسعد بك حليلة شبابك. وهي لعمري جديرة بك حقاً. فتعال

إذن وأعد المركبة، ولنعد إلى القرية راكبين، وهنالك فلنخطبها ثم نذهب بها إلى الدار.

كان الفتى منصتاًإلى كلمات الرسول، وبرغم أنها عبارات سماوية مقدسة وباعثة للأمل، لم تبد على وجهه علامات السرور، بل تنهد من أعماق صدره وقال: لقد أتينا إلى هنا على عجل، ولكني أخشى أن سنركب إلى دارنا في شيء من الفشل، فنرجع متباطئين، لقد أخذت الهموم تملأقلبي وأنا أنتظركما هاهنا، وأخذ يستحوذ على اليأس والقلق وكل ما يضئأفئدة المحبين. فهل تحسبان أن مجرد ذهابنا إلى هناك كافٍ لأن تقبل الفتاة علينا وتتسعنا، لأننا نحن ذوو يسار، أماهي فتعاني الفاقةوالتشرد. لكن الفقر نفسه – أن أصاب غير أهله – يبعث في النفس الشمم والكبرياء. وهذه الفتاة جمة النشاط. وقد تدرعت بالقناعة. وبهذين السلاحين يصبح العالم في قبضة يدها.

ثم أتحسبان أن يكون لإمرأة مثل هذا الجمال والكمال: فلا يفتتن بها الشباب ويهيم بها؟ أتظنان أنها أغلقت قلبها حتى الساعة. فلم ينفذ إليه حبٌّ بعد؟ أولى لنا إذن ألا نركب إلى هناك. بل نعود ساحبين ثياب الخجل. راكبين على مهل إلى الدار. فإني لأخشى أن بعض الفتيان قد أستحوذ على قلبها ويدها. وأنها أقسمت له يمين الإخلاص. فأي إضطرابسيعروني إذا وقفت بين يديها في مثل تلك الحال؟

هم القسيس أن ينطق بكلمات يسليه بها، لكن الصيدلي بثرثرته المعهودة سبقه إلى الكلام فقال: في الأيام الخالية لم يكن هذا الشي

ممايحيرنا. إذ كان لكل أمرذي خطر نظامه وطريقته. فبعد أن ينتقي الوالدان عروساً لفتاهما. يرسلان سراً في طلب أحد أصدقاء الأسرة. ويبعثان به إلى والدي العروس ليقوم بأمر الخطبة. فيبادر هذا الصديق، وقد أخذ زينته كاملة في يوم الأحد، وينتظر إلى ما بعد الغداء بقليل، ثم يزور ذلك الرجل الجليل في داره. وهنالك يتحدث إليه بعبارات ودية عامة، وهو يعلم كيف يحول مجرى الحديث متى شاء، فبعد كثير من اللف والدوران يجيء. ذكر الفتاة فيثنى عليها، ثم يثنى على الأب. وعلى الأسرة التي أرسلته اليوم. ثم تبدر منه كلمةحكيمة تشير إلى الموضوع؛ ويلمح السفير العاقل ماهنالك من حسن نية فيأخذ في الشرح والإيضاح. وإذاافترضنا أنه لم يلق نجحاً ولاتوفيقاً، فلن يكون في هذا غضاضة. أماذا تكلل مسعاه بالفوز، فسيصبح لهذا الوسيط المكان الأول في كل حفلة للأسرة، لأن العروسين يذكران مدى العمر أن أول من عقد الرُباط هو تلك اليد الماهرة: يد الوسيط.

أما الآن فإن هذا أصبح كسائر العادات الصالحة، يعد خارجاً عن المألوف. وأصبح كل وسيط نفسه، فإذا رفضته العروس، فليتناول فشله بيده، وليقف موقف المضطرب الحائر أمام الفتاة.

فقال الفتى، ولم يسمع من كلام الصيدلي إلا القليل: بل كان يفكر حتى إستقررأيه على قرار حاسم: مهما يكنمن أمر، فإني ذاهب بنفسي لأعلم من فم الفتاة مصيري ومالي. فإن لي بها ثقة قلما وضع مثلها رجل في إمرأة. وأنا أعلم علم اليقين أن كل ما تقوله حسن وحكيم. ولئن قدر لي أن سيكون هذا اللقاء الأخير، فإني أودرغم هذا أن أقابل مرة أخرى تلك

النظرات الصريحة من تلك العيون السوداء؛ وإذا لم يتح لي أن أضمها إلى قلبي. فلا أقل من أن أشاهد مرة أخرى ذلك الصدر وتلك الأعطاف، التي يشتهي ذراعاي تطويقها، أجل أريد أن أرى مرة أخرى ذلك الفم، الذي تسعدني منه القبلة وكلمة (نعم) مدى الحياة. والذي تشقيني منه كلمة (لا) مدى الحياة.

فدعاني إذن وحدي! وما من داع إلى إنتظاري. بل إرجعا الساعة إلى الوالد والوالدة، كي يعلما منكما أن إبنهما لم يخطئ، وأن الفتاة جديرة بكل خير. فأتركاني وحدي وسأعود مختصراً الطريق، سالكاً ذلك الممشى المنبسط فوق الكثيب إلى شجرة الكمثرى، ثم أمر من وسط الكرمة حتى أصل إلى دارنا.

فهل يتاح لي أن أرجع مسرعاً ومعي الحبيبة؟ أم أعودفريداً وحيداً أجر رجلي جراً في تلك الطريق، ثم أدخل الدار التي لن أدخلوا منشرح الصدر أبداً؟

قال هذا وناول اللجام القسيس. فأمسكه هذا إمساك الخبير، كابحاً جماح الجوادين، وقد علا أشداقهما الزبد. ثم صعد المركبة مسرعاً، وجلس في مكان السائق.

لكن رفيقه الحازم، المتبصر في العواقب، جعل يتردد ويقول: إني أيها الصديق أأتمنك على نفسي وروحي وعقلي عن سرور ورضى. ولكن إخال أن الجسد والعظام ليست في مأمن من عاديات الزمان،إذا كانت اليد المقدسة هي القابضة على هذه اللجُم الدنيوية الفانية.

فقال له الآخر، وهو يحاوره مبتسماً: أدخل إلى المركبة بسلام، وأتمن على جسدك وروحك على السواء، كن مطمئناً فإن هذه اليد ألفت منذ عهد بعيد أن تقبض على اللجم، والعين قد تمرنت على سلوك أقوم الطرق. وقد تعلمنا في استراسبورغ كيف نسوق المركبات، حين ذهبنا إلى هناك في صحبة ذلك البارون الصغير.[1] وفي كل يوم كنت أتولى قيادة المركبة. فتمرقبنا من وسط الباب الكبير المرجع للصدى، وتعدو بنا في طريق تربة، إلى المروج، وإلى الغاباتالبعيدة. وسط الجموع الغفيرة من الناس الذين لاعمل لهم غير التنزه طول النهار.

عند ذلك تجلد الصيدلي،بعض الشيء. فصعد المركبة وجلس فيها جلسة الرجل الحازم المتأهب في كل لحظة للوثوب إلى الخارج.

وإنطلق الجوادان تنقاء الدار. وبهما إلىالإصطبل شوق. فكان يتصاعد من تحت سنابكهما سحب من العثيرالمثار.

وقد وقف الفتى طويلاً، يحدق في الغبار إذ يصعد. ثم يتفرق في الهواء ذرة ذرة، وهو تائه العقل حائر اللب. لا يفكر في شيء.

([1])كثيراً ما يبدأ القسس حياتهم – خصوصاً في الزمن الذي نحن بصدده – كمؤدبين لأبناء الإشراف

النشيد السابع

إيراتوERATO

(آلهة الغزلوالنسيب)

دروته

لقد يقف ابن السبيل عند الغروب، ينعم النظر في ذكاء، ثم يلقى عليها وهي آخذة في الإختفاء بسرعة نظرة عجلى، فلا يزال يرى صورتها تهتز وسط الأدغال القاتمة. وفوق الجنادل والصخور؛ وحيثما إتجهت نظراته. فثم وجهها يلمع مهتزاً في ألوان بديعة.. كذلك كان هرمن. فحيثما نظر رأى صورة الغانية الفتانة تمر أمامه على مهل. وكأنماتسير في الممر الضيق الذي يخترق مزرعة القمح.

لم يلبث أن أيقظ نفسه بعنف من هذه الرؤيا التي أدهشته. ثم أدار وجهه نحو القرية، فإزدادتدهشته. إذ رأى القوامالعالي لتلك الفاتنة مقبلاًنحوه. فأنعم النظر، ورأى أن هذا لم يكن وهماً. وأن هذه هي حقاً. قد أقبلت وهي تحمل في يديها جرتين، قد أمكست بقبضتيهما. وجعلت كبراهما في اليمين والصغرى في اليسار. وهي تمشي بجد ونشاط نحو الينبوع.

تقدم هرمن نحوها مسروراً؛ وقد بعث منظرها في قلبه القوة والعزم.

وخاطبها، وقد تولاها شيء من الدهشة، فقال:هأنذا ألقاك مرة أخرى. أيتها الغادة الباسلة، دائبة على عمل جديد تساعدين به العاجزين وتحيين به النفوس البائسة. لكن حدثيني!كيف قصدت وحدكإلى هذا الينبوع على بعده. وأكثر من بالقرية يكتفون بما هنالك من الماء؟ ولو أن هذا الماء حسن المذاق، مفضل على سواه؛ وكأني بك ستحملينه إلى تلك المريضة، التي أنقذتها بما بذلت لها من رعاية وعناية.

فحيته الفتاة أحسن تحية، وقالت: لقد جوزيت أحسن الجزاء على أن قطعت كل هذا الطريق إلى الينبوع، بأن لاقيت الرجل الكريم، الذي أمطر علينا الهبات، وإن النفس لتسر لمرأى المحسن، كما يسرها منظر الإحسان. فتعال وأنظربنفسك إلى الذين نعموا بما منحتهم، وتلق منهم، على صنيعك، أطيب الحمد والثناء.

وإنك لتراني وقد قطعت هذا الطريق، لكي أغترف من هذا الينبوع الذي يتدفق منه الماء صافياً طهوراً. فما ذلك إلا لأن الناس بإهمالهم قد كدروا كل ما بالقرية من ماء، وتركوا الخيل والثيران تخوض في الينبوع الذي يسقى القرية وأهلها. وكذلك لوثوا جميع الأحواض بماغسلوا وما رحضوا فيها.حتى لم تعد هنالك بئر واحدة نظيفة. لأن كل فرد لا يعنيه إلا أمر نفسه، ويريد أن يقضي حاجته بسرعة، من غير أن يكترث لحاجات الناس.

ولم تكد تتم حديثها، حتى أخذت تنزل الدرجات وهرمن إلى جانبها؛ ثم جلسا، كلاهما، على الجدار الصغير حول الينبوع. وإنحنت فوق الماء لتغترف منه. وأمسكهو بالجرة الأخرى ومال فوق الحوض ليغترف. فأبصرا

صورتيهما، وقدار تسمتا في زرقة الماء الصافية المنعكسة على صفحة الماء. وهنالك نظر إليها ونظرت إليه، وحياها وحينه، في تلك المرآة الصافية المصقولة.

وقال لها، وقد سروطرب: ناوليني شربة!، فأمسكت له جرتهاحتى شرب. ثم إستراحا قليلاً وقد إتكأ كل منهما على جرة: وقالت هي للصديق: أني أراك هنا، بعيداً عن الموضع الذي قابلك فيه. بلاخيل ولا مركبة. فكيف وصلت إلى هذا المكان؟.

فأطرق هرمن مفكراً، ثم رفع رأسه، وجعل يحدق في عينيها، بنظرات الصديق المخلص؛ فأحس كأنما قد عاد إلى قلبه الهدوء والطمأنينة. ولكن كان يرى من المستحيل أن يحدثها حديث الهوى. إذ لم يلمح في نظراتها الحب، بل العقل والروية يأمرانه أن يتكلم بعقل وروية. فلك زمام نفسه بسرعة. وقال: دعيني أحدثك وأجبك صراحة على سؤالك: إني جئت إلى هنا من أجلك أنت. ولست أرى داعياً لأن أخفى عنك هذا. إني أعيش سعيداً مع والدين برين، أعاونهما في شئون الدار، وفي إدارة العقار. إذ ليس لهم من الأبناء غيري. وأعمالنا متعددة الشكول، متشعبة النواحي. وأكبر ما أعني به المزرعة، أما والدي فيدير المنزل بجد وهمة. والوالدة النشيطة تعمل أبداً وتدأب في سائر مرافق الحياة. وما إخالك إلا قد مارست هذه الأعمال جميعاً، وعرفت ما تسببه الخادماتلربة الدار من عناء، بالخيانة حيناً وبالرعونة أحياناً. فتضطرلأن تبدل خادماً مكان خادم، وهي بهذا إنماتبدل نقصاً مكان نقص، وعيوباً جديدة مكان العيوب القديمة.لهذا كانت أمي منذ عهد بعيد تتمنى أن ترى في الدار فتاة تعاونهالا باليدين

فحسب، بل بالقلب والضمير أيضاً. فتكون لها عوضاً من إبنتها التي سلبتها المنون إياها من قبل.

واليوم وقد أبصرتك إلى جانب المركبة، ورأيت الساعدين القويين. والصحة البادية في كل جارحة من الجوارح وسمعت منك الألفاظ الممتلئة عقلاً، تملكني الدهشة والإعجاب وعدت مسرعاً إلى الدار. وجعلت أمدح هذه الغريبة بالذي تستحقه أمام الوالدين والأصدقاء. والآن عدت إليك لأحدثك بالذي يبغونهمنك.. إغفري لي ترددي في الكلام وحيرتي..

فقالت له: لا تخش ضيراً في أن تتم حديثك،وليس في الذي ستقوله ما يشينني وإني لم أحس، وأنا أصغي إليك غير عاطفة الشكر، فقل بصراحة ماتريد أن تقوله. فليس فيه مايزعجني.إنك تريد أن تدعوني لأكون لوالديك خادماً أمينة، كي أعني بشئون منزلكم، الذي أعدد تموه أحسن إعداد. وأنت تظن أنك ستجد في فتاة جادة، تقبل على العمل بإسمة الثغر، ليس في طبعها خشونة ولا جحود.. لقد كنت في عبارتك موجزاً. وسيكون رديعليهاموجزاً. أجل إني قابلة أن أذهب وإياك وأن ألي نداء القدر. وقد أتممت ما علينا من واجبات. فأسلمت النفساء إلى أهلها. وكان سرورهم بالنجاة لاحدله. وأكثر الشريدين قد إلتقوا بذويهم؛ والآخرون سيتقابلون قريباً: وهم جميعاً يحسبون أن سيعودون إلى أوطانهم بعد أيام قلائل؛ وهذا دأب الطريدين إذ يغررون بأنفسهم. أما أنا فلاأخدع نفسي بالأماني الكذاب في هذه الأيام العصيبة، التي تنذرنا بما هو أشد منها هولاً. إن الروابط التي تصل بين أواصر العالم قد إنحلت عراها. فأي قوة تستطيع أن توثقها مرة أخرى. اللهم إلا قوة الشقاء الجسيم، الذي

يتهددناويوشك أن يحل بنا؟

ولين أتيح لي أن أكون خادماً في بيت رجل جليل، وأن أعول نفسي من هذا السبيل، في رعاية إمراه طيبة صالحة،فإني أقبل هذا عن رضى وإرتياح، والفتاة التي تقضي أيامهافي التنقل من أرض إلى أرض، يكثر حولها القيل والقال. أجل إني ذاهبة معك، فأمهلني حتى أحمل الجرتين إلى الأصدقاء، وتعال لكي تراهم حين يستقبلوننا.

أصغى الفتي مسروراً إلى هذا القرار الذي قطعته الغادة عن رضى وإرتياح، وجعل يسأل نفسه هل يفضيإليها بالحقيقة الآن؛ فبدا له أن الأوفق أن يتركها وما توهمت. ثم يذهب بها إلى منزله، فلا يحدثها حديث الحب إلا هناك.ثم لاحظ في شيء من الأسف أن بإصبعها خاتماً من الذهب. فلم يحر كلاماً، وإكتفي بالإنصات لما تقول.

فقالت له: لنرجع أدراجنا الآن، فإن الناس يوجهون قارس اللوم إلى الفتيات اللواتي يطلق المكث عند البئر، مع أن الكلام لدى الينبوع المتدفق من أحب الأشياء إلى النفس.

عند ذلك نهضا واقفين، ونظرا مرة أخرى في الماء، فبعثت هذه النظرة في كل منهما إحساساً رقيقاً، وشعوراًعميقاً.

ثم حملت الجرتين ممسكة بقبضتيهما. وصعدت الدرج وهرمن على أثرها. وقد طلب إليها أن تناوله إحدى الجرتين كي يقاسمها العبء الذي تحمله، فقالت: دعهما لي، فإن في حمل الإثنين معاً، ما يبعث على إتزان الجسم. فلا يتعبني حملهما، ويجب أن أذكر أن السيد الذي سيكون لي

آمرا، أولى به ألا يقوم الآن بخدمتي. وفيم تنظر إلى هذه النظرات الحزينة؟ كأن الذي أناصائرة إليه أمر يبعث الحزن والهموم. أن واجب المرأة يقضي عليها أن تتعلم كيف تخدم،كي تؤدي وظيفتها في الحياة. فبالخدمة وحدها تستطيع المرأة، مهماطال المدى، أن تنال السيادة التي هي بها جديرة وحقيقة. فتصبح لها في دارها الكلمة العليا.

وهكذا تأخذالأخت مبكرة في خدمة شقيقها وفي خدمة والديها. فحياتها أبداً حركة دائمة، جيئة وذهاب، ورفع ووضع، وإعداد أشياء وإجهاد للنفس من أجل الغير.. وما أسعدها حين تعتاد نفسها كل هذا. فلا ترى في شيء غضاضة. ولا تزهد في عمل مهما كان حقيراً تافهاً. وسيان لديهاأفي ساعات الليل تعمل أم في ساعات النهار.. أجل ما أسعدها إذ تصبح وقد نسيت نفسها تماماً، فلا تحيا إلا من أجل الآخرين.

وما أحوجها إلى كل هذه الفضائل حين تغدو والدة: حينيوقظ الطفل الرضيع أمه، طالباً الغذاء، وهي بعد ضعيفة هزيلة، وما كفاهاماتعاني من ألم، حتى تضطلع بهموم جديدة.

ولن يستطيع عشرون رجلاً أن ينهضوا بهذا العبء ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وفي الحق أن هذا ليس من شأنهم، ولكن لا أقل من أن يعترفوا للمرأة بالفضل، ويقابلوه بالشكر.

بهذه الكلمات نطقت الغادة، مخاطبة رفيقها، وهولا ينبس بكلية. وقد إجتازا الحديقة ووصلا إلى فناءالجرن.حيث اضطجعت النفساء، يصحبها الشقيقتان اللتان نجتا من الهلاك. وقد دخلتاعليها في تلك اللحظة فإذا هما

ملكان طاهران. ودخل من الناحية الأخرى في الوقت نفسه ذلك القاضي الوقور. ممسكاً بيده طفلين قد يئست من لقائهما أمهما المسكينة، وإستطاع الشيخ الآن أن يجدهما وسط هذه الجماهير المضطربة.وقد وثبا مسرورين ليحيا أمهما الراقدة. ويحييا الطفل الرضيع الذي سيغدو لهما رفيقاًيلاعبانه ويداعبانه. ثم وثبا نحو دروتيه وسلما تسليم الصديق المتحمس، وطلبا منها خبزاً وثمراً وماء ليشربا؛ فأمسكت الجرة وناولتهما الماء فشرب الأطفال،وسقت النفساء وأختيها. وسقت القاضي. وقد شربوا جمعياًوإرتووا، وأثنوا على الماء القراح، الذي طاب مذاقاً، وفيه غذاء وشفاء.

وعند ذلك قالت العادة وهي تنظر إليهم نظرات جد: أيها الأصدقاء! إني لأخشى أن تكون هذه آخر مرة أدني الجرة إلى ثغوركم فأبلل بالماء شفاهكم. ومنذ اليوم، إذا إشتد بكم الحر فملتم إلى الظل تطلبون الراحة، وتطفئون الغلة إلى جانب عين جارية. فهنا لك فلتذكروني، ولتذكروا ما قمت به من خدمة كان يبعثها حبي لكم، لامجرد القرابة التي تجمعنا. أما ما أسديتم إلى من جميل فإني ذاكرته مدى الحياة. لعمري إني لأحزن لفراقكم.ولكننا أصبحنا بحال أنا فيها أدنى أن أكون عبئاً عليكم من أن أكون عوناً لكم. وإذاحيلبينناوبين أوطاننا فليس لنا بد – قريباً أو بعيداً. من أن نتفرق في بلاد الغربة.

وانظروا! هذا هو الشاب الذي ندين له بهذه الهدايا: بهذا الكساء للطفل الرضيع، وتلك الأطعمة الشهية.لقد أقبل الساعة يسألني أن أذهب إلى داره، لكي أقوم بخدمة والديه صاحبي الغني والجاه. فلم أرد هذا

الطلب، لأن واجب الفتاة يقضي عليها بأن تخدم؛ وأنها ليشق عليها أن تجلس في البيت مستريحة، تاركة لغيرها أن تقوم بخدمتها. لهذا سأمضي منشرحة الصدر مع هذا الشاب، وقد ألقيته عاقلاً ذكياً، وكذا سيكون الوالدان من غير شك. كما يليق بقوم ذوي يسار.

فيا صديقتي العزيزة أستودعك الله، ولتقر عينك برضيعك الذي ينظر إليك الآن نظرات ملؤها الصحة والحياة. فإذا ما ضممته إلى صدرك وهو في هذه اللفائف المتعددة الألوان. فإذكري الشاب الذي أهداها إلينا. والذي سأنال منه أنا أيضاً في المستقبل ما به أكتسي وأغتذي. وأنت أيها الرجل الجليل (مخاطبة القاضي) لك مني جزيل الحمد على أن كنت لي أباً ونصيراً في مواقف عديدة.

ثم ركعت جاثية بجانب الأم الراقدة. وقبلتوجهابللته العبرات. وأنصتت إليها، وهي تمطرها صالح الدعوات بصوت هادئ خافت.

وفي هذه اللحظات كان القاضي الفاضل يقول لهرمن: إنك أيها الصديق لجدير بأن تعد من أعقل أصحاب المنازل، الذين يعرفون كيف يختارون لإدارة دورهم أكثر الناس دراية وكفاية. وعهدي بالناس إذا أرادوا إقتناء الخيل أو البقر أو الغنم. سواء بالمبادلة أو بالشراء، أن ينعموا النظرويحققوا.. ويدققوا. أما الإنسان الذي يستطيع أن يصلح كل شيء في الدار ويحفظه، إن كان صالحاً، وأن يفسد كل شيء ويخرب كل شيء بالخرق والطيش. فإنه يؤتى به إلى الدار بمحض الحظ والمصادفة. فلا يلبث أصحاب الدار أن يندموا على تسرعهم حين لا يجدي الندم. أما أنت

فيبدو لي أنك قد فهمت هذا الأمر جد الفه، وقد لعمري عرفت كيف تختار لخدمتك وخدمة أبويك فتاه قل نظيرها.. فأقدرها حق قدرها، وما دامت هي القائمة على بيتكم. فلن تشعر بفقد الأخت. ولن يحس أبواك فقد إبنتهما.

وفي تلك اللحظة أقبل كثير من أقارب النفساء يحملون الهدايا. ويسوقون إليها البشرى بأن ستنقل إلى مسكن خير من الذي هي فيه. وقد سمعن جميعاً ماقر عليه رأي الفتاة. فنظرن إلى هرمن نظرات ذات معان، تنبئ عما يدور بخاطرهن من أفكار يحاولن إخفاءها. وقد مالت واحدة منهنإلى صاحبها وهمست في أذنها قائلة: ولئن إنقلب المولى عروساً فقد سعد جدها.

عند ذلك قبض هرمن على يدها وقال لها: هلم بنا، إن النهار يوشك أن ينقضي. والبلدة بعيدة فجعلت دروتيه تعانق النساء، وهي تودعهن. فجذبها هرمن وهي تحيي الجميع أحسن تحية.وأمسك الأطفال بثوبها وهم يبكون وينتحبون ولا يريدون أن يدعوا أمهم الثانية تغادرهم. فجعلت كل من النساء تأمرهم بأن يخلدواإلى السكون، قائلة: لم هذا البكاء؟ وهيإنما تذهب إلى المدينة لتأتيكم بتلك الحلوى الكثيرة. التي أوصى بها أخوكم الرضيع، حينما حمله اللقلق الصغير إلى هنا [1] ماراً بدكان الحلواني. وسترونها بعد قليل، وقد عادت إليكم بالقراطيس الذهبية الجميلة.

---

(1)في بعض بلاد أوروبا أن ولد طفل. وجعل الأطفال الصغار يسألون من أين جاء هذا الصغير: فيجيبهم الكبار بأن قد جاء به طير القلق أو شيء آخر، والعبارة قد تختلف قليلاً من بلد إلى بلد.

هنالك أطلق الأطفال سراحها. فإنطلق بها هرمن. ولأيا ما إستطاع أن ينجو بها من كل هذا العناق. ثم من الإشارات بالمناديل بعد أن ابتعدا.

النشيد الثامن

ملبوميني MEL POMENE

(إلهةالماسي)

هرمن ودروتيه

انطلق الأثنان، وأمامهما ذكاء قد مالت للغروب، مستترة خلف غشاء كثيف من السحاب المنذر بالرعد وبالأمطار، والشمس من وراء ذلك القناع تبعث بنظرات ملتهبة، طوراً هنا وطوار هنالك، فتسكب على الفضاء أشعة سحرية مبهمة، قد كمن فيها نذير الشر.

قال هرمن: عسى ألايرسل إلينا هذا السحاب المكفهر برداً أو وابلا منهمراً، فيفسد غلة هذا العام على حسنها.

وقد سر الإثنان لمنظر القمح، وقد تمايلت سنابله على سوقه.ويوشك أن يبلغ في الطول قامة الصديقين اللذين يسيران وسطه الآن.

وقالت الفتاة لصاحبها: أيها الرجل الصالح، الذي أمسيت له مدينة بهذا المصير الحسن، وبهذه الدار التي ستؤويني وتظلني. بيتاً يبيت كثير من الطريدين في العراء، عرضة للعواصف والأمطار.حدثني الآن، وقبل كل شيء، عن أبويك اللذين سأقوم بخدمتهما، واللذين أميل إليهما بكل قلبي. فأطلعني على جلية أمرهما، لأن من عرف مولاه سهل عليه إرضاؤه.

بأنيكون حريصاً على كل شيء يراه هو في المرتبة الأولى. وقد وقر في نفسه أنه أكثر خطراً من كل شيء سواه. لهذا سألتك أن تخبرني كيف أستطيعإرضاء الوالد والوالدة.

فأجابها الفتى: إنك أصبت كل الإصابة إذ تسألين عن خلق الوالدين وعن طباعهما. فقد قضيت عمري وأنا أحاول عبثاً خدمة أبي وإرضاءه بأن أقوم بإدارة العقار كله، كأنما أديره لنفسي، وأتعهد الحقول والكروم صباحاً ومساءً. أما والدتي فمن السهل أن أكسب رضاها، لأنها تقدر الجهودحق قدرها.

وأنت أيضاً ستصبحين لديها خير الفتيات وأفضلهن، إذا عنيت بأمر المنزل كأنه منزلك. أما والدي فليس من هذا الطراز، لأنه يحب المظاهر البراقة الخلابة. ولا تتهميني أيتها الفتاة الطيبة بالبرود أو بالقسوة، أن كشفت لك عن أمره، وأنت بعد غريبة عنا. وإني أقسم لك أن هذه أول مرة أنطق فيها بمثل هذا القول. وما أنا ممن يحبون كثرة القيل والقال. لكن مرآك يبعث الثقة في النفس، ويجعلني مطمئناً لأن أتحدث إليك في مثل هذه الأمور.فوالدي يتطلب في الحياة شيئاً من المداهنة. ويود أن يبالغ الناس في إظهار الحب له والإجلال والإكرام. ولقد يسر أحياناً من خادم خائن يعرف كيف يستغل طبعه هذا، وبالعكس قد لايسره المخلص الأمين.

فقالت الفتاة وهي تسرع الخطى. وقد أخذ الليل يرخي سدوله: لكني أرجو أن أكتسب رضى الإثنين. فطبع الأم موافق طبعي تماماً. وعدا هذا فإني قد ألفت منذ الصبي أن ألاطف وأجامل. فإن جيراننا الفرنسيين

فيالزمن الغابر[١] كانوا يجعلون للأدب واللباقة أهمية كبرى. فكان التمسك بالآداب فرضاً على الأشراف النبلاء وعلى الطبقات الوسطمن أهل المدن، والفلاحين العاملين على حد سواء. فكان الكل يفرضها فرضاً على أهله وعشيرته. وقد سرت إلينا، نحن جيرانهم من الألمان، تلك العادات، فترى الاطفال عندنا في الصباح يقرئون الآباء السلام. مكبين على أيديهم يقبلونها مظهرين نحوهم كل إجلال وإعظام. وهكذاداأبهم طول النهار.

فهذه كلها أمور ألفتها ودرجت عليها منذ الحداثة حتى باتت لي طبعاً وخلقاً، وسأبديها كلها تلقاء الشيخ الوالد.

ولكن من مخبري الآن كيف ألقاك أنت وكيف أعاملك أنت الإبن الوحيد الذي سيكون لي في المستقبل سيداً آمراً؟

وعندما نطقت الفتاة بهذه العبارة كانت قد وصلت ورفيقها إلى شجرة الكمثرى. وقد أشرق البدر التمام. وجعل يرسل ضياءه من السماء، وإختفت الشمس تحت الأفق فلم يبق منها شعاع ولا ضياء، فكان أمامهما أنوار مضيئة كأنها النار الساطع، وظلال معتمة كظلام الليل البهيم.

وقد أنصت هرمن إلى ذلك السؤال، وهو واقف معها تحت ظل الدوحة الباسقة، في أحب بقاع الأرض إلى نفسه، حيث كان يذري الدمع في ذلك اليوم بعينه، من أجل هذه الطريدة الواقفة بجانبه.

جلست الفتاة في ظل الدوحة لتسترح قليلاً، فأجابها الفتى العاشق على سؤالها. وهو قابض بيده على يدها: دعي قلبك يوح إليك بما تفعلين،

---

(١)أي قبل أن تبدل الثورة من طباعهم.

ثم أجيبي وحيه، ولبي نداءه في كل شيء.

ولم يجرؤ أن يزيد على هذا حرفاً، وكان الوقت مؤاتياً، والفرصة سانحة، ولكن خشي أن يتعجل كلمة النفي، وآلمه حين قبض على يدها أن أحس ذلك الخاتم على أصبعها. ولهذا جلس إلى جانبها لا يحرك ساكناً، ولا ينطق بكلمة.

لكن الفتاة قطعت حبل الصمت وقالت: ما أبدع ضياء البدر وماأعذبه!إنه ليحاكي ضوء النهار، حتى لأبصر من هنا في جلاء ووضوح، ديار المدينة وقصورها، وأرى هناكغرفة تحت نافذة، ولقد أستطيع أن أحصى ما بها من قطع الزجاج.

فقال الفتى وهو يكتم عواطفه: إن هذا الذي ترينه هو منزلنا، حيث أذهب بك الآن. وتلك الغرفة الملاصقة للسقف هي غرفتي، وقد تغدو غرفتك قريباً، لأننا كثيراً ما نغير من نظام المنزل. وهذه هي مزارعنا، وقد نضجتثمارها وحان وقت الحصاد. وفي ظل هذه الشجرة نجلس وقت الظهيرة لنتناول غداءنا.

والآن هلم بنا نمش وسط الكرمة، ثم نجتاز الحديقة إلى الدار،فإني أرى السحاب المطير يوشك أن يغشانا ويغشى البدر التمام، وهذي بروقه أخذت تلمع.

ثم نهضا من تحت الشجرة، وجعلا ينحدران وسط المزرعة، ما بين قمح قد علا ونما وسرهما ما يحيط بهما من ضياء لامع منتشر. ولم يلبثا أن وصلا إلى الكروم، وتحت عُرُشها ظلام حالك، فجعل الفتي يقودها، وهو

ينزل بها تلك الدركات الحجرية الخشنة، الممتدة وسط العريشة. فأخذت الفتاة تنزل في ريث وأناة، مسندة يديها إلى كتفيه. وكان القمر يطل عليهما من خلال الكرم بأشعة ضعيفة تهتز وتضطرب. ثم لم يلبث أن غشيته السحب وخلفهما في ظلام قائم. فجعل هرمن يمشي بتؤدة، والفتاة مستندة إليه، على قوتها. وهي تمشي خلفه بدركة واحدة.ولكنها لجهلها الطريق، وبالدرج من خشونة وسوء إنتظام، تعثرت في مسيرها، وزلت بها رجلها، وكأنما إلتوت قدمها، فسمع لها صوت.ومالت الفتاة لتهوي، لولا أن أدار الشاب وجهه مسرعاً وبسط ذراعيه وأمسك بهما جسمها المحبوب، فسقطت متساندة على كتفيه، وقد ألتصق في تلك اللحظة صدرها بصدره، ولامس خدها خده، ووقف هو ساكناً كأنه تمثال من المرمر، وليس في قلبه ذرة من العبث. فلم يضمها إلى صدره إلا بمقدار ما يمنعها من السقوط. ومع ذلك فقد كانت عبئاً جميلاً، وكان يحس حرارة صدرها وقد لامس صدره، وعبير أنفاسها الشافية يهب على شفتيه. لكنه كان محتملاً لجثمانها، وليس فيه صدره غير شعور الرجل القوي العزيمة.

أما هي فسرعان ما أخفت ما بها من ضر، وقالت وهي تضحك: في عرف الناس ذوي العقل والبصيرة. إذا إلتوت الرجل عند عتبة البيت فإن هذا ينذر بشر مستطير. وكان أولى بك أن تجد ليفألا خيراً من هذا الفأل. والآن فلنتمهل قليلاً، كي لا يلومك أبواك على أن أحضرت إليهم خادماً عرجاء. فتبدو أمامهم رب دار كثير الإهمال.

النشيد التاسع

أورانيا URANIA

(آلهة الفلك)

مستقبل!

أي آلهات الفنون [1]! يامن يسرهن أن يحسنإلى العاشقين المغرمين! لقدأخذتن بيد هذا الفتى الصالح، وسلكتن به أسلم الطرق، حتى لقد ضممتن صدره إلى صدر حبيبته، من قبل أن تعقد بينهما خطبة، ألافلتساعدن الآن على توثق تلك الرابطة التي ستجمع بينهما، ومزقن تلك السجب التي تعكر صفاء سعادتهما، وأقصصن علينا قبل كل شيء ما يجري الآن بالدار.

***

عادت الأم للمرة الثالثة إلى حجرة الرجال، وقد بلغ منها القلق مبلغه، وكانت قد غادرتها منذ لحظة، حينماطغى السحاب على القمر. واحست بدنو العاصفة، وساورها الخوف على إبنها، لتخلفه إلى تلك الساعة وسط الليل البهيم وأخطاره. فجعلت توجه إلى الصديقين قارس

(١)الإستنجاد بالموزات (**Musen**) شيء مألوف في الشعر الحماسي، ولكن جود لم يلجأ إليه إلا في هذا الموضع، بعد أن كاد يفرغ من كتابة قصته في إسلوب سهل خال من كل تكلف.

اللوم، إذ رجعا دون أن يتحدثا إلى الفتاة، أو يقولا كلمة من أجله، بل تركا الفتى وشأنه، وعادا مسرعين.

فقال لها الوالد: لا تجعلي الشر أسوأ مما هو! فنحن مثلك قد أضجرنا الإنتظار ونريد أن نستقر على حال.

وأخذ الصيدلي يتكلم بهدوئه المعهود دون أن يتحرك من مكانه، فقال! حينما تمر بي ساعة كالتي نحن فيها الآن، يستحوذ فيها على الناس القلق، وينضب معين الصبر، عند ذلك أبادر بشكر والدي المرحوم، الذي إستأصل من نفسي جذور القلق والضجر، حين كنت في الدار صبياً؛ فلم يبق منها في صدري أثر، وأمسيت حليماً صبوراً، كأكبر العقلاء وأحزمهم.

فقال له القسيس: وأي آلة إستخدمها أبوك الشيخ للوصول إلى هذا الغرض؟ فأجاب الآخر: يسرني أن أقص عليكم ذلك القصص، وفي وسع كل منكم أن يستفيد منه أجل الفوائد. كنت مرة – وأنا بعد صبي – أنتظر بفارغ الصبر قدوم المركبة التي ستقلنا في يوم الأحد إلى البئر تحت أشجار الزيزفون. لكن المركبة لم تجيء. فجعلت أجريكالوزغة من مكان إلى مكان، صاعداً نازلاً؛ طوراً أنظر من الباب، وطوراً أطل من النافذة. وأحسست حكه في يدي، فجعلت أحدث في المائدة خدوشاً، وأضرب الأرض برجليبل كدت أبكي بكاء.. رأى الوالد كل هذا وهو في سكونه المألوف، ولكنه لما آنس أن الهياج قد بلغ مني درجة الجنون، أخذ بذراعي في هدوء ومشى بي إلى النافذة، وألقى على سمعي هذه العبارة الحكيمة: أنظر إلى هناك! تر ذلك النجار قد أغلق دكانه اليوم! لكنه سيفحته غداً؛

وعند ذلك يتحرك المنشار وتتحرك (الفأرة) ولا يزال يجد ويعمل من الصباح إلى المساء.. لكن تذكر ولا تنس أنه سيأتي يوم يشتغل فيه ذلك النجار هو وجميع مساعديه، كي يصنعوا لكنعشاًيهيئونه ويتمونه بسرعة ثم يبادرون بنقل هذا المنزل الخشبي إلى هنا. وهذا المنزل هو المصير الذي يؤول إليه الناس جميعاً سواء منهم من كان صابراً، أو من كان ضجراً، وبعد ذلك يوضع المرء تحت سقف ثقيل.

كل هذا رأيته ماثلاً في خاطري؛ فكأنما رأيت الألواح تمد. واللون الأسود يعدلكي تصبغ به الألواح. عند ذلك زايلني الضجر، وجلست أنتظر المركبة في صبروسكون. ومنذ تلك اللحظة، إذا أبصرت الناس في هرج ومرج من جراء أمر أقلقهم إنتظاره. عند ذلك يخطر النعش ببالي فألزم الهدوء.

فتبسم القسيس ضاحكاً وقال: إن منظر الموت، وإن أثر في النفس، لا يزعج الرجل العاقل ولا يرى فيه المؤمن أنه الغاية التي ليس وراءها شيء.فأما الأول فإن منظر الموت يثير في نفسه روح الجد والعمل، وأما المؤمن فإنه يقويه في ساعة المحنة بما يبعثه في نفسه من الأمل في السعادة المقبلة [١] فيصبح الموت في نظر كل منهما هو الحياة بعينها.. وقد كان خطأ من الوالد أن صور لإبنه– وهو بعد ذو شعور حساس – الموت، في شكله الرهيب، وإنما يجب علينا أن نرى الشباب مافي الشيخوخة من

(١)أي أن الناس أمام الموت إما رجل «يهتدي فكره أو رجل يهديه إيمانه ودينه، وليس معنى هذا أن المتدين لا يفكر أو أن الفكر لا دين له، وإلا لما جاز القسيس أن يغويه بهذا الكلام. وكل ما هنالك أن الإنسان إذا إسترشد بفكره أو بإيمانه فليس في الموت ما يدعو إلى الجزع.

نضوج و جلال، ونرى الشيوخ منظر الشباب. لكي يجد الأثنان لذتهما في مراقبة تلك الدورة الأبدية، وكلها حياة في حياة.

في تلك اللحظة فتح الباب، وظهر الفتى والفتاة،في روعة وفي جلال، فدهش الصديقان، ودهش الأبوان إذ أبصرا العروس، وقوامها يكاد يدنو من قوام الفتى، حتى لقدخيل إليهما أن الباب أصغر من أن يسع هذين القوامين السمهريين.

خطا الاثنان معاً فوق العتبة، وبادر هرمن بتقديمها لوالديه بألفاظٍ عجلة سريعة. فقال: هذه فتاة تتمنيان أن يكون لديكما مثلها. فأكرم وفادتها أيها الوالد العزيز، وأنتِ يا أماه! سلميها عن شئون المنزل جميعاً، لكي تدركي أنها أجدر الناس بأن تقربيهاإليك، وتدنيها منك.

وإلتفت هرمن إلى القسيس، وإنتحي به ناحية، وقال له همساً: أيها السيد الجليل! أعني بالله على الخروج مما أنا به من مأزق. وساعدني على حل عقدةٍ، أخشى أن تسوء حالها، إن لم تتداركها بسرعة. فأني لم أطلب إلى الفتاة أن تكون لي خطبة. وهي تظن أنها تنزل البيت خادماً، لا عروساً. وأخشى أن تفر هاربة منا لمجرد ذكر الزواج. فلنمض في سبيلنا بسرعة؛ ويجب ألا ندعها في خطئها هذا طويلاً. وأنا كذلك لا أطيق البقاء في ظلام الشك طويلاً، فأسرع بربك، وأظهر الآن ما نعهده فيك من عقل وحكمة.

عند ذلك ألتفت القسيس الى الجماعة يريد مخاطبتهم، ولكن كانت الفتاة وياللأسف، قد أخذمنها الكدر مأخذه حين أنصتت لمقالة الوالد، ولو أنه تكلم بنية حسنة. وبفكاهته المألوفة. فقال: نعم ما فعلت يا بني!

ولقد سرني أن يتشبه الولد في حسن ذوقه بالوالد، الذي كان لا يصطحب الى المراقص غير أجمل الفتيات. ثم أختار أخيراً أبهي النساء زوجاً له وها هي الآن: الأم العزيزة المحبوبة. ولعمري إن الرجل – عند إختياره لزوجه – ليعلن الناس عن حصافته وعن عقله، وعما إذا كان يأنس في نفسه فضلاً وجدارة.أما أنتما فلم تكونا بحاجة إلى تفكير طويل، قبل أن تقطعا برأي. وأنت يا أبنتي ما كان لك أن تترددي طويلاً في قبول هرمن.

وكان هرمن في تلك اللحظة يخاطب القسيس، فلم يسمع من كلام أبيه إلانصفه، ولم يكد يعي ما تضمنه حتى جعلت جوارحه ترتعد، وقلبه يخفق. وساد السكون فجأة، وصمت الجميع.

أما الفتاة فقد جرحت عزة نفسها لكلام حسبته تهكماً وسخرية منها. وبلغ الألم منها صميم القلب، وتصاعد الدم إلى وجهها. فغطى الخدين وصفحتيالعنق. ولكنها ملكت نفسها وحاولت جهدها إخفاء ما تحسه من ألم. ثم قالت للشيخ: لعمري أنإبنك لم يعدني لمثل هذا اللقاء، حينما وصف لي السيد الوالد: بأنه أحسن ما يكون عليه أهل المدن من كمال وفضل.. ومع علميأنني الآن بين يدي رجل أوتي من العلم والأدب النصيب الأوفر، ويعرف كيف يعامل كل إنسان بما هو أهل له. فإني أظنك لا تحس عطفاً ولا رحمة نحو هذه البائسة المسكينة، التي دخلت دارك الساعة لكي تسهر على خدمتك. ولو كنت تحس نحوي القليل من الرحمة، لما خاطبتني بكل هذا التهكم المر، مهما كنت تحسبني دونكودون إبنك منزلة وقدراً. لقد جئت اليوم، وليس بديغير حقيبة صغيرة، إلى منزل فيه سائر الأمتعة، وقد توافرت فيه جميع وسائل الراحة والسعادة للذين يسكنونه،يبد أني

أعرفلنفسي منزلتها، وأقدرها حق قدرها. فهل من النبل والكرم أن أقابل بمجرد دخولي الدار، بهذا التهكم الذي يوشك أن يلقى بي إلى خارجها؟

إستولى على هرمن الرعب، فأشار إلى القسيس أن يتدخل ويبددغيوم هذه الأغلاط. فبادر هذا الرجل العاقل، وأقبل على الجماعة. ورأى الفتاة الطريدة يتناهها الكمد والألم. وأغرورقت عيناها بالدمع، فلم يشأ أن يحل عقده الشك فوراً. بل حدثته نفسه أن يبلو أمر الفتاة أولاً، ويستطلع دخائل نفسها؛ فخاطبها بألفاظ يختبرها بها، وقال: حقاً إنك لمتسرعة، قليلة التروي، أيتها الفتاة الغريبة. إذ قبلت على عجل أن تكوني خادماً عند قوم تجهلينهم وكأنك لم تفهمي أن هذا معناه أنك ستكونين خاضعة لسلطان سادة آمرين، ما دمت قد تعاقدت معهم على القبول. وإن رضاك هذا لحتم عليك الطاعة والخضوع لأمور كثيرة، وليس أشقشيء في الخدمة تلكالأعمال المنزلية المضنية. ولا العرق المتصبب من جراء المجهود الجثماني الذي لا ينقطع. لأن ما يعانيه رب الدار من هذا لا يقل عما يعانيه الخدم. كلا؛ بل أشق ما في الخدمة أن تجاملي مولاك إذا ساء خلقه، وأن تحمليظلمهإذا ظلم، وأن تنصتي إلى أوامره المتضاربة المتناقضة، إذا كان متردداً لا يعرف لنفسه رأياً قاطعاً، وأن تقبلي من ربة المنزل ما قد تبديه منعنف وشدة، فهي سرعان ما يتملكها الغضب. وأن تتحملي رعونة الأطفال. وما قد يبدونه نحوك من قحة وغلظة.

هذه كلها أمور تشق على النفس، ولكن إحتمالها أمر لا بد منه لتأدية الواجب المفروض على الوجه الأكمل، من غير ملل ولا تذمر. وأكبر ظني أنكِ لست على شيء من المهارة في هذا.مع أنه ليس هنالك شيء أيسر

من أن يمازح المرء فتاة على إعجابها بأحد الفتيان.

سكت القسيس، لكن كلماته نفذت إلى قلب الفتاة الحساس. فلم تعد قادرة على ضبط نفسها، وظهرت أشجانها الكامنة. فجعل صدرها يعلو ويهبط، والزفرات المحرقة تتصاعد منه.وقالت، وهي تسكب الدمع غزيراً: أن الرجلالذي يتحدث بعقل ومنطق، ويريد أن يعظنا في وقت المحنة، قلما يدرك أن كلامه الفاتر الرزين لا يغني شيئاً في تخفيف ذلك الشقاء. وأنى لكم، وأنتم في السعادة والنعيم تمرحون، أن تحسوا ما قد يحدث المزح من ألم وعذاب؟ أما المريض الذي شفه الضني فإنه يحس الأذي مهما كان صغيراً أو تافهاً، ولن يجديني الآن أن أتكلف الرضى والسرور. بل ليظهر الآن ما لو كتمته في صدري لكان فيما بعد سبباً في إزدياد همومي، بل لقد يسلمنيإلى كمد يقتلني على مهل.

فدعوني الآن أرجع أدراجي، فما كان لي أن أبقى في الدار لحظة. بل الأجمل بي أن أنطلق الآن فألحق بأهليوأقاربي الذين خلفتهم وسط الشقاء، لكي أسعى في تحسين حالي وحدي. أجل هذا هو رأيي الذي لن أحيد عنه. ولهذا أريد أن أعترف لكم قبل إنصرافي بأمر كان في وسعي أن أبقيه سراًمكتماً طوال السنين.

إن ما لقيته من الوالد من التهكم قد أثر في أبلغ التأثير، لا لأني رقيقة الإحساس شديدة الكبرياء؟ فليس هذا ما يليق بالخادمات، بل لأني حقيقة قد إستشعرت في قلبي ميلاً نحو هذا الفتى، الذي قابلني اليوم، منجداً ومنقذاً، ثم غادرني في الطريق ومضى، فلم يزل بعدها ماثلاً في خاطري.

وجعلت أفكر في الفتاة السعيدة التي إختارها قلبه. وحينما قابلته لدى البئر بعد ذلك فرحت فرحاً شديداً، كأني قابلت أحد سكان السماء. ولهذا تبعته مسرورة حين طلب إلى أن أكون خادماً. ولست أنكر أنني كنت أخدع نفسي أحيانا وأنا قادمة إلى هنا، فأصور لها أن قد لا يكون مستحيلاً أن أصبح يوماً به جديرة حين أصبح في المنزل ذخراً وعوناً لا يمكن الإستغناء عنه.

لكني الآن أدرك البون الشاسع الذي يفرق بين الفتاة الفقيرة وبين الشاب ذي اليسار، مهما رزقت من النشاط والفضل.

كل هذا أقصه عليكم كي تذكرواحقيقة ذلك القلب الذي جرحته كلمة قيلت مصادفة وعفواً، وإني لهذهالمصادفة لشاكرة وإلا فما يكون مصيري إذأكتم آمالي وأحلامي في صدرى، وأنتظر حتى أراه يقتاد عروسه إلى الدار بعد قليل، وكيف أقدر حينذاك على تحمل كل تلك الآلام في الخفاء؟

أجل إني لسعيدة إذ أنذرت منذ الساعة بالذي أتوقع، وسعيدة أيضاً لأني أفضت بما يكنه صدري، والداء بعد مما يمكن علاجه، قبل أن يتأصل ويستفحل، والآن حسبي الذي قلته: وليس لي الآن ما أبقى هاهنا من أجله. يعلوني الخجل والإضطراب بعد أن أدليت بمكنون سري؛ بالآمال الكواذب التي كانت تجول في صدري، وسأذهب الساعة، ولن يمنعني من الذهاب هذا الليل البهيم تغشاه السحب القاتمة، ولا الرعد القاصف، الذي يصم الأسماع هزيمة. ولا المطر الذي يتساقط وابلاً منهمراً، ولا

الرياح العاصفة وزئيرها المخيف، تلك أشياء قد مارستها من قبل. حينما إضطررنا إلى الفرار، يتعقبنا الأعداء عن كثب، فهأنا ذي ذاهبة إلى هنالك، ولقد ألفت منذ نزلت بنا هذه الكوارث، أن مضى في سبيلي وليس في حوزتي شيء.

إذن أستودعكم الله. لن أبقى هنا لحظة أخرى.

ولم تكد تنطق بهذه الألفاظ، حتى تراجعت إلى الباب. متأبطه الحزمة الصغيرة التي جاءت بها. لكن الأم بادرت فطوقت الفتاة بذراعيها، وصاحت بها وهي مندهشة حائرة: ويحك ما معنى هذا كله؟ وما هذه الدموع التي لا أفهم لها كنها؟ كيف أدعك تبرحين الدار وأنت مخطوبة إبني؟

أما الوالد فنهض متذمراً ضجراً، ونظر إلى الفتاة وهيتنتحب، وقال متأففاً: هذا جزائي إذن على أن أبديت منتهى البشاشة والملاطفة، أن تكون هذه المنغصات هي آخر ما أختم به يومي. إن أبغض الأشياء إلى نفسي بكاء النساء هذا وإعوالهن، الذي يزيد في تعقيد مسائل كان من السهل حلها بقليل من العقل والروية. فعليكم أن تجدوا المخرج لأنفسكم من هذا، أما أنا فذاهب إلى فراشي لأضطجع ثم تولى عنهم ليذهب إلى حجرته، التي لم يزل سرير الزواج منصوباً بها، وكان من عادته أن يأوي إليها ليستريح.

لكن إبنه تعلق به، وجعل يستعطفه قائلاً: لا تسرع بالخروج أيها الوالد! ولا يغضبك ما قالت الفتاة. فعلّوحدى يقع إثم كل هذا الإضطراب، وقد زاد الصديق الفاضل الموقف حرجاً، علىّبخلاف ما كنت

أنتظر منه. فتكلم الآن أيها السيد الجليل. فإليك أكِل هذا الأمر كله. لاتزد ما نحن فيه من آلام ومخاوف. بل إكشف القناع عن كل شيء. وإلا فلن أستطيع في المستقبل أن أجلك وأعزك، إذا كنت الآن تسلك طريق المكر، بدلاً من أن تصرف الأمور بما عهدناه فيك من عقل ومن حكمة.

هنالك تبسم القسيس الجليل ضاحكاً وقال: لقد كان من العقل وقد كان من الحكمة أن إستدرجت الفتاة، حتى أدلت بذلك الإعتراف البديع، وأظهرت من سرها ما كان خافياً. ألم يكن من نتيجة هذا أن إستحالت همومك فرحاً وسروراً؟ فالآن لم يبق إلا أن تدلي أنت لها بما عندك، ولا حاجة بك الأن يعينك في هذا ثالث.

فتقدم هرمن إلى الفتاة وقال لها في لطف وفي رفق: لا تندمي على ما أذريته من الدموع، وما قد أحسست من ألم طارئ سرعان ما يزول. فقد كان في هذا إتمام لسعادتي؛ وأرجو أن يكون فيه إتمام سعادتك أيضاً.

إننيما ذهبت إلى الينبوع لكي أسأل الفتاة الغريبة أن تكون عندنا خادماً. بل ذهبت إلىهنالك لكي أنشد حبك. ولكني، وأسفاه! لم تستطع عيناي اللتان أغمضهما الحياء، أن تبصرا أين يميل بك الهوى. وأين يدفعك قلبك. فلمتر العينان منك إلا الصداقة والأدب، حينما كنت تحبينني في مرآةذلك الينبوع الصافي. ولقد كان في قبولك أن تصحبينيإلى المنزل نصف سعادتي المنشودة، والآن قد أكملت على النعمة،فبوركت وحييت!

هنالك نظرت إليه الفتاة وقد بلغ التأثر منها صميم القلب. فلم تمانعه حين تقدم إليها ليضمها ويلثمها. فقد كان في هذا بلوغ ذروة

السرور، وضمان لسعادة العمر التي ليس وراءها سعادة.

وقد أفهم القسيس الآخرين حقيقة الموقف لكن الفتاة لم يكفها هذا بل تقدمت إلى الوالد، في أدب وفي ظرف، وأكبت على يده فقبلتها رغم ممانعته، وقالت له: إنك بما طبعت عليه من عدل وإنصاف ستعفو عن هذه الفتاة، التي أذهلها ما سمعت وما رأت، فجعلت تبكي بكاء الألم، ثم أخذت تذرف دموع الفرح، فأصفح عما رأيت منها في كلا الحالتين،وإئذن لي بأن أنعم بكل ما أنا فيه الآن من بهجة وسرور، وليكن ذلك الكدر الأول، الذي كان إضطرابي بعض أسبابه: ليكن الأول والأخير، وأما ما تعهدت الخادم المخلصة بأن تؤديه من خدمة ورعاية، فهذا كله ستؤديه الكنة الأمينة.

فعانقها الوالد متأثراً وهو يخفي دمعه، وتقدمت الأم على مهل، وقبلتها في عطف وحنان، وأخذت بيدها تصافحها والدمع يتساقط من عيونهما دون أن يتحرك اللسان بكلمة.

هنالك تقدم القسيس الصالح، دون أن يضيع لحظة فإنتزع من يد الوالد خاتم الزواج – ولم يكن هذا بالشيء السهل. لأن الأصبع السمينة جعلت إخراج الخاتم شيئاً عسيراً –، ثم إنتزع من إصبع الأم خاتمها، وعقد بالخاتمين خطبة الفتى والفتاة، وقال: ليكن من حظ هذين الخاتمين الذهبيين، مرة أخرى. أن يعقدا رباطاً وثيقاً. يعادل الرباط الأول قوة ومتانة، إن هذا الفتيحب هذه الفتاة حباً جماً، وهذه الفتاة قد أقرت بأنها تميل إليه، فأنا أعلن خطبتكما الآن، وأباركما مدى الدهر. بموافقة الوالدين وشهادة

صديقنا.

وهنا انحنى الصيدلي، وهو يدعو الدعوات الصالحة، ولكن لم يفته أن رأي عند ما ألبس رجل الدين الفتاة الخاتم، أن في إصبعها خاتماً آخر فأدهشة أن رآه الآن كما رآه هرمن من قبل لدى البئر، فأثار همومه، فقال الصيدلي مازحاً متردداً: هل هذه إذن هي الخطبة الثانية؟ ومن يدرينا لعل العروس الأول أن يجيء إلى المذبح فيقيم الموانع دون الزواج؟

فقالت الفتاة: دعوني أخصص لحظة لهذه الذكرى، التي يثيرها هذا الخاتم: ذكرى الفتى الطاهر الذي وهبني إياه، يوم ودعني وسافر، ولم يؤب بعدها إلى وطنه. وكأنماكان عالماً بما سوف يقع، حين قذف به إلى باريس حبه للحرية. وشغفه بأن يلعب دوره في هذا العالم المتقلب المتحول. فكان نصيبه هناك السجن والموت. وقبيل سفره قال لي: في رعاية الله! إني منطلق الساعة، لأني أرى كل شيء في العالم قد تحرك مرة واحدة، وقد تقطعت بالناس الأسباب، وأن الشرائع الأساسية لأقوى الدول قد إنفصمت عراها. وحيل بين المالك القديم وبين ما يملك، وبوعد ما بين الصديق والصديق.وإفترق المحب عن الحبيب،وهأنذا أغادرك هاهنا، حيث أرجو أن ألقاك يوما ما. ومن يدري، فقد يكون هذا آخر حديث أتحدث به إليك. وما أصدق قولهم: إن الإنسان في هذه الدنيا في دار غربة.. ولم يكن هذا القول في يوم أصدق منه في يومنا هذا. فقد أصبحنا وليست الأرض ملكاً لنا؛ وكنوزها الغالية ذاهبة أدراج الرياح. والذهب والفضة قد فقدا ما كان لهما من حرمة وتقديس، وإستحالا إلى صورة غير صورتهما الأولى. وهكذا أصبح كل شيء في إضطراب وفي حركة، كأنما يريد هذا العالم القائم أن

يتحللويتفكك – راجعاً القهقري – وسط الفوضى والظلام القاتم، لكي يلبس بعد ذلك ثوباً جديداً.

فأخلصي لي الحب، وإن قدر لنا أن نلتقي فوق أنقاض هذا العالم، فسنلتقي كشخصين جديدين، قد كونا تكويناً جديداً، وأصبحا حرين طليقين، لا يخضعان لصروف الأقدار. ولعمري كيف يقبل التقيد بقيد من إستطاع أن يعيش في هذا الزمن العصيب ثم يخرج منه حياً؟

أما إذا شاء القدر ألا يكون لقاء سعيد بعد هذه المحن والأخطار. وأن لن يتاح لنا أن نتعانق في سرور مرة أخرى، عند ذلك فأحفظي ذكراي. وأجعلي صورتي الخافقة أمام خاطرك، لعل في هذا ما يبعث في صدرك الهدوء والجلد، فلا يهمك بعدها أنزلت بك الكوارث أم غمرتك السعادة.

وإذا إستهواك منزل جديد، وعلاقة جديدة، فإنعمي شاكرة بما أعدته لك الأقدار، وأخلصي الحب لمن يحبك، وقابلي الإحسان بالحمد والشكر. لكن حذار أن تسرفي في الحب، خشية أن تحل كارثة جديدة فيؤودك وقع المصاب المزدوج.

بورك لك في أيامك.ولكن حذار أن تنظري إلى الحياة إلاكمتاع من الأمتعة. وليس كل متاع إلاخدعة وغروراً[1]

تلك كانت الوصية التي أوصاني بها الفتى ذو النبل، ولم يعد بعدها إلي. وفي هذه الفترة فقدت كل شيء، وذكرت ألف مرة مقالة هذا وما

(١)ليس مجرد صدقة أن يكون هناك شبه بين هذه العبارة وبين الآية: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) فإن جوته كان يعرف القرآن ويتمثل ببعض من آياته.

أنذرني به، والآن أيضاً أذكر عبارته، إذ أرى الحب قد هيأ إلى هنا سعادة جديدة. وأرى الأمل الجميل ماثلاً أمامي بإسم الثغر.

واعف عني أيها الصديق الهمام، إذا كنت أرتعد الساعة وأنا ممسكة بذراعك، فإن الملاح حين يضع رجله فوق أديم الثري، بعد الذي عاناه في أسفاره، يحس بالأرض تخفق وتهتز تحت رجليه، مهما كانت ثابتة راسخة.

هكذا تكلمت الفتاة، ثم ضمت الخاتمين أحدهما إلى الآخر، فأخذ هرمن يتكلم بصوت فيه رقة النبل وشهامة الرجولة، فقال: أي دروتيه! لئن كانت الكارثة شديدة فادحة، فلتكن الرابطة التي تجمعنا اليوم أقوى وأشد، يجب أن تثبت وأن نصمد للحوادث، وأن نحتفظ بأنفسنا وبما ملكت أيماننا. فإن الرجل الذي يتزعزع ويضطرب في هذه الأوقات المزعزعة، إنما يزيد الخطب هولاً وإستفحالاً، أما الذي يثبت ويدأب، فإنه سرعان ما يلم شعث هذا العالم.

وما ينبغي للألماني أن يحاول نشر تلك الحركة الفظيعة في بلاده، وأن يتردد من تجربة إلى تجربة، إن لنا مبادئنا وسننا فلنذكرها للناس صراحة ولنعلنها لهم، إن الشعوب التي تثبت على مبادئها، والتي تجاهد في سبيل الله وفي الذود عن الشرائع. وفي حماية الآباء والنساء والبنين، أولئك يمدحهم الناس جميعاً وإن كان نصيبهم في الحرب الهزيمة.

اليوم قد أصبحت لي يا دروتيه! واليوم أصبح كل شيء أملكه أعز على مما كان قبلاً، فإني الآن لا أحافظ عليه أو أنعم به في حزن وإهتمام. بل في بسالة وقوة، ولئن تهددنا العدو المغير، في العاجل أو في الآجل،

فلتكوني أنت أول من يقلدني سلاحي ويعدني للقتال؛ ولعلمي أنك خير من يرعى الدار ويرعى الوالدين الحبيبين، فأني سأعرض صدري آمناً مطمئناً للأعداء. ومتى أصبح جميع الناس يرون رأيي، فهنالك تقف القوة أمام القوة، وتنعم كلنا بنعمة السلام.

الفهرس

مقدمة ٥

قصيدة (إيلجيا) ١٨

النشيد الأول

كاليوبيا KALLIOPE ٢٥

النشيد الثاني

تربسيكوراTERESTICHORE.................................... ٣٧

النشيد الثالث

طاليا THALIA ٥١

النشيد الرابع

يوتربا EUTERPE ٥٧

النشيد الخامس

بوليهمنيا POLYHYMNIA ٦٩

النشيد السادس

كليو ELIO ٨١

النشيد السابع

إيراتو ERATO.. ٩٥

النشيد الثامن

ملبوميني MEL POMENE.. ١٠٥

النشيد التاسع

أورانيا URANIA ١١١